المدخل

إلى الفلسفة

دكتور
نظير محمد عياد
مدرس العقيدة والفلسفة
كلية أصول الدين — جامعة الأزهر

الطبعة الأولى
١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م
الدار الإسلامية للطباعة والنشر



﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي

لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونشكره ولا نكفره ، ونعادي من يكفره ، .ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا إنـه من يهديه الله فلا مضل لـه ، وأشهد أن لا أله إلا الله خصنا بخير كـتاب أنـزل ، وشـرفنا بخير نبي أرسل ، وجعلنا بالإسلام خير أمة أخرجت للناس نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ونؤمن بالله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . اللهم أحينا على سنته وأمتنا على ملته واحشرنا في زمرته ، وألحقنا بصحبته اللهم أمين .

أما بعد ...

فمـن المعلوم أن الإسلام قد أشاد بمكانة الإنسان في الكون ورفع من قدره قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ...﴾ (1)

وجعل التفكير فريضة على الناس ، وما أجل توجيهاته الكريمة في كتابه العزيز :

" أفلا تتفكرون " ؟ " أفلا تذكرون " ؟ " أفلا تعقلون "؟
" أفلا يتدبرون " ؟ " أولم ينظروا " ؟ ... الخ

وبعد هذا لازم خلق الإنسان منذ مهده من يوجه تفكيره ويقوده بهدي من الله حتى لا يكون عرضة للوقوع في الأخطاء أو يضل الطريق

(1) سورة البقرة .

، ولا أدل على ذلك من أن الله تعالى عندما خلق " أدم " (عليه السلام) أمده بما يضمن له الصواب قال تعالى :

﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ (1)

وقال تعالى :

﴿... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ (2)

فما أمد الله به الإنسان من وسائل المعرفة هو سبيله إلى معرفة الله تعالى وشكره . وتلك هي الحكمة التي يمنحها الله ويمن بها على من يشاء من عباده قال تعالى :

﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ (3)

فالحكمة غاية ونعمة يسعى إليها الإنسان لكي يسمو بنفسه إلى مرتبة الإنسانية ، ويرتفع بها عن درك الحيوانية علماً وعملاً يؤهله لحمل الأمانة التي كلفه الله تعالى بها . قال تعالى :

---

(1) سورة البقرة .

(2) سورة الإسراء .

(3) سورة البقرة .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾[1]

فالحكمة هي الغاية التي يسعى إليها الإنسان والفلسفة هي محبة الحكمة وإيثارها فمعنى ذلك أن لدراسة الفلسفة أهمية كبرى في حياة الإنسان .

فهي من ناحية تساعد الإنسان للوصول إلى غايته التي يسعى لها حيث إنها من العلوم العقلية الشاملة التي تتناول كل شيء بالبحث والدراسة . فضلاً عن ذلك فإن دراسة الفلسفة تساهم في بناء الشخصية الإنسانية السليمة فهي تكسب الإنسان دقة في الحكم وبراعة في النقد وسعة في الصدر وبعداً في النظر ، وتيسر له القدرة على الإحاطة بأطراف المشاكل المتعددة والموازنة بين الآراء المتعارضة .

ولا يقتصر دورها على هذا فحسب ؛ بل إنها تثير في نفس الإنسان البحث الحر والنقد النزيه وتدفعه إلى التمسك بالقيم العليا والأخلاق الفاضلة .

وإذا كان هناك من المسلمين من ينفر من دراسة الفلسفة ويبتعد عنها ظناً منه أن لا منفعة ترجى من ورائها ، أو أنها تضر بالعقيدة الدينية ، أو أن مسائل الفلسفة ليست لها صلة بالحياة بل هي مقطوعة الصلة عنها فإن هذا الكلام أو هذا الظن في غير محله .

---

(1) سورة الأحزاب .

لأنه إذا كان دراسة الفلسفة مهمة لطلاب العلم بصفة عامة فإنها أكثر فائدة لطلاب الدراسات الإسلامية بصفة خاصة . ذلك لأن دراسة هؤلاء لقضايا الفلسفة ومشكلاتها والوقوف على ما فيها من حق وباطل وخير وشر من شأنها أن تجعل من الداعية المسلم جندياً في ميدان الحياة قـــادراً على الدفاع عن عقيدته بعقل متفتح وفكر مستنير وحجة قوية وبرهان واضح .

أضـــف إلى هـــذا أن الفلســـفة الجادة لا تعادي الدين الحق بل بالعكس تؤيده وتناصره ، وتحاول أن تؤيد قضاياه وترد على منكريه . فالدين لا يعادي الحق والفلسفة تبحث عن الحق والحق لا يعادي الحق . لهذا كان البحث في الفلسفة من الأهمية بمكان .

وفي الكـــتاب الذي بين أيدينا سنقوم بعرض سريع لبعض مبادئ الفلسفة وموضوعاتها و مباحثها على النحو التالي :

الباب الأول : جاء بعنوان " مدخل عام " وقد اشتمل على خمسة فصول :-

الفصل الأول : مقدمات عامة .

الفصل الثاني : مفهوم الفلسفة ومجالاتها .

الفصل الثالث : نشأة الفلسفة .

الفصل الرابع : علاقات الفلسفة .

الفصل الخامس : تصنيف العلوم الفلسفية

الباب الثاني : جاء بعنوان " مباحث فلسفية " وقد اشتمل على ثلاثة فصول :-

الفصل الأول : مبحث الوجود .

الفصل الثاني : مبحث المعرفة .

الفصل الثالث : مبحث القيم .

ثم فهرس الموضوعات .

فالدراسة التي بين أيدينا هي عبارة عن دراسة لخصائص النظرة الفلسفية وخطوات الموقف الفلسفي وبواعث التفلسف ، ومفهوم الفلسفة ومجالاتها ، وغايتها وأهدافها وتصنيف العلوم ، وعلاقتها بغيرها من العلوم الأخرى وأخيراً عرض لمباحثها .

وفي عرضنا لهذا كله توخينا سهولة العبارة ووضوح الكلمة . ونحن نأمل أن يكون هذا الكتاب طريقاً يهتدي به القارئ الكريم للوصول إلى ميدان الفلسفة الفسيح ، ويجعل عنده الرغبة في التفلسف ومعايشة الأفكار والتفاعل معها والمشاركة فيها .

والله نسأل أن ينفع به طلاب لعلم ورواد المعرفة ويمنحني التوفيق والسداد إنه ولي ذلك والقادر عليه . وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المؤلف .

الباب الأول

مدخل عام



الفصل الأول

مقدمات عامة

الفلسفة وأهميتها

منذ القدم أحس الإنسان بأن الكون الذي يعيش فيه غامض ، فأخذ يبحث عن أسراره ويفتش عن حقيقته ، واهتدى إلى القوى التي تتحكم فيه . من السحاب والعواصف ، والأمطار وغيرها وتخيل عوامل كونية وراء الظواهر الطبيعية ، وجعل منها آلهة يخشى غضبها ويسعى لرضاها . وقد سبق هذا الفكر الفلسفة من حيث كونه تعبيراً عن الوعي والوجدان ... ولكن الفلسفة تقوم على العقل دون غيره [1].

ويمضي الزمن وتمر الأيام وينضج عقله فيفترض في أصل الكون فروضا بحجج متباينة . وبهذا التفسير ظهرت الفلسفة بمعناها الصحيح .

وعلى هذا فالفلسفة رغبة في معرفة الكون كله كنظام عام والفيلسوف لا يشتغل بالجزئيات وإنما يتركها للعلم ، ويحاول معرفة الوجود بالتفكير الذي يقوم على الفروض التي تفرضها عليه طبيعة المادة .

والفيلسوف يعلم أن فروضه تقع وراء عالم الحس فلا تثبت بالملاحظة ، ويستعين على دراستها والاستنباط فالتفلسف إذا هو : البحث عن حقائق الأشياء وأصولها وعلاقتها بعضها ببعض ، فالإنسان منذ وجد على ظهر الأرض ، تنبه فيه الإحساس بما حوله من مشاهد الطبيعية ، فأثارت هذه المشاهد في نفسه الدهشة والاستغراب ففرض لها الفروض وأقام الأدلة رغبة في الوصول إلى

---

(١) انظر : الفلسفة والمجتمع الإسلامي . د. إبراهيم اللبان . صـ ١١٦ الطبعة الثانية ١٩٥٤ النهضة المصرية ، انظر : تاريخ الفلسفة اليونانية ، د. نازلي إسماعيل صـ ٨ - ط١٩٨١.

حقائقها وانتابته إزاء ذلك جوانب عديدة من الأسئلة : من أين ؟ وإلى أين ؟ ولماذا ؟...

وكانت تتلاءم مع عقليته ومعارفه وهذا الاتجاه ما يسمى باسم الفلسفة [١].

وإذا كان الإنسان يتميز عن بقية الكائنات بعقله الذي وهبه الله تعالى له ، فإن التفلسف ليس شيئاً آخر غير استخدام هذا العقل وكان " بوخنيسكى " على حق حين قال : عن الفلسفة بأنها :

ليست من الأمور التي تهم المتخصص فقط وإنما تهم الجميع ، فإنه لا يوجد في الغالب إنسان لا يتفلسف ، أو على الأقل فإن لكل إنسان لحظات في حياته يصبح فيها فيلسوفا [٢].

هذا ومن الخطأ البين أن يعتقد بعض الناس أن الفلسفة لا مجال لها في عصر التقدم العلمي . والحق أن هذا الاعتقاد لا أساس له من الصحة .

إذ وظيفة الفلسفة تختلف عن وظيفة العلوم الجزئية ، فهذه تتناول الأشياء في أجزائها . والفلسفة تتناولها في مجموعها كما أن العلوم الجزئية تتناول الكون من ناحية وصفه . بينما الفلسفة تتناوله من ناحية معناه ، فهي تحاول أن تعطى للأشياء قيمة وقدرا ، والعلوم الجزئية تحاول تفسير الظواهر ، والفلسفة تريد أن تصل إلى الحقائق التي تختفي وراء الظواهر [٣].

---

(١) انظر: محاضرات في الفلسفة العامة د. أحمد عبد الوهاب صـ ١ ـ ٢ ، مكتبة الأزهر الحديثة ط ١٩٩١م .

(٢) انظر : مدخل إلي الفكر الفلسفي . جوزيف لوخينسكي ، ترجمة د. محمود زقزوق . صـ٦ الأنجلو المصرية ط ٢ .

(٣) انظر : البراجماتية ، يعقوب فام صـ ٢٥ . الهيئة المصرية للكتاب ط ٢ ١٩٩٨ . وانظر : مدخل إلى الفكر الفلسفي . صـ ٧.

ومعنى ذلك أن جوهر الفلسفة هو التفكير. وهذا التفكير مهمة الإنسان الأساسية ودائرة تميزه عن غيره من الكائنات التي خلقها الله تعالى . ويجدر بنا أن نسجل في إعجاب وتقدير ما قاله " ديكارت " عن الفلسفة بأنها :

هي وحدها التي تميزها من الأقوام المتوحشين والهمجيين ، وأن حضارة الأمة وثقافتها إنما تقاس بمقدار شيوع التفلسف الصحيح فيها ولذلك فإن أجل نعمة ينعم الله بها على بلد من البلاد هي أن يمنحه فلاسفة حقيقيين [١].

وحقاً ما قال " ديكارت " بأن الفلسفة هي مقياس حضارة الأمم . وأنها من أجل نعم الله على البلاد أن يوجد بها فلاسفة .

ولكن ليس معنى ذلك أن الإنسان من حيث طبيعة التفكير يقتضي ذلك أن يتحول الناس جميعاً إلى فلاسفة من هذه الزاوية وهى الفكر والإدراك ، وربط الأشياء بعللها وأسبابها .

إذ أن المؤرخين للفلسفة قد اصطلحوا على أن كلمة فيلسوف لا تطلق بدقة إلا على من انقطع لهذا العمل ومارسه "[٢] .

ومعنى ذلك أن الفلاسفة قوم من الناس لهم فكر خاص . ومستوى ثقافي في مجالات النظر يؤهلهم لهذا الإطلاق . المتضمن كلمة فيلسوف والتي تعنى انقطاع صاحبها للعمل الفكري وممارسته بدقة عبر تاريخ الفلاسفة الطويل . الذي يرتبط بالفلسفة ارتباطا وثيقا .

(١) انظر : مبادئ الفلسفة . ديكارت . ترجمة د . عثمان أمين صـ ٤٨ ط ١٩٦٠م .
(٢) انظر : مقدمة في الفلسفة العامة . د . مصطفى حلمي ، د. مختار محمود صـ ٥- ٦ دار الثقافة العربية ١٩٩٦م

نشأة لفظ الفلسفة

اختلف مؤرخو الفلسفة حول أول من أستعمل هذا اللفظ فبينما يري بعض المؤرخين أن " فيثاغورث " [١] أول من استعمل هذا اللفظ فقد كان أول من استخدمها بمعني البحث عن طبيعة الأشياء ، وروى عنه " شيشرون" [٢] ... أنه قال : من الناس من يستعبدهم التماس المجد ، ومنهم من يستذله طلب المال ، ومنهم قله تستخف بكل شيء وتقبل على البحث في طبيعة الأشياء وأولئك هم الذين يسمون أنفسهم محبي الحكمة أي الفلاسفة [٣] .

بينما يري البعض الأخر أن أول من أستخدم هذا اللفظ المؤرخ المعروف " هيرودوت " .

فقد كان أول من أستعمل كلمة يتفلسف بمعني اصطلاحي ، ويظهر ذلك من خلال ما ورد على لسان " كريزوس " .

---

(١) فيثاغورث : فيلسوف رياضي يوناني ولد في ساموس وعاش ما بين ٥٧٠- ٥٠٠ ق.م هاجر إلى سيسيل ليؤسس في مدنها جمعيات فلسفية سياسية ودينية وقد عرف عنه نزعته إلى التصوف ، فقد اتخذ منحى صوفياً ساعياً إلى فصل إرادي بين الروح والجسد .
(انظر : موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأجانب . إعداد أ. روني إيلي الفا وزميله جـ ٢ صـ ١٩٤- ١٩٥ . دار الكتب العلمية بيروت . ط ١ ١٤١٢ ـ ١٩٩٢) .

(٢) شيشرون : كاتب وخطيب وفيلسوف لاتيني ، ينحدر من أسرة مثقفة وغنية ، وكان أبوه فارساً رومانياً ومغرماً بالفن والأدب وله عدة مؤلفات منها في الاختراع ، في الخطب ، في الجمهورية وغيرها (انظر : موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأجانب جـ ٢ صـ ٥٣- ٥٤) .

(٣) أسس الفلسفة . د . توفيق الطويل صـ، ٤٥ . دار النهضة العربية . ط ٧ .

فإنه يحدثنا أن " كريوزوس" قال لـ " صولون " إنه سمع أنه " أي صولون " قد جاب كثيراً من الأقطار يتفلسف وأن الذي دفعه إلى ذلك رغبته في المعرفة [١] .

ويروي" أفلاطون " [٢] و " أرسطو " [٣] أن لفظ الفلسفة في إطلاقه الأول يرجع إلى تلاميذ " سقراط " [٤] وقد يكون هذا الرأي أقرب إلى الصحة والرجحان والذي يساعد على ترجيح هذا ما جاء عنه أنه قال : الحكمة لله وحده ، وإنما للإنسان أن يجد ويبحث ليعرف ، وفي قدرته أن يكون تواقاً للمعرفة باحثاً عنها وفي كل ذلك ليس حكيماً ، وإنما محباً لها لكونها لا تضاف إلا للإله [٥] .

و أياً كان أول من قال بها فإن الأمر لا يعدو سوى أن الفلسفة تعني محبة الحكمة ، وهي تتطلب الجهد الدائب وصولاً للحق والوقوف على استكشاف الأمور .

---

(١) مدخل إلى الفلسفة . أزفلد كولبه . ترجمة . أبو العلا عفيفي صـ ٨ . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٢م .

(٢) أفلاطون : فيلسوف يوناني ولد في أثينا عام ٤٢٧ . وتوفي عام ٣٤٧ ق . م ، ويعد من أعظم فلاسفة العصور القديمة وهو ينتمي إلى أسرة عريقة في حسبها وقد ترك عدة مؤلفات منها الجمهورية . المأدبة . والمحاورات وغيرها
(انظر المدارس الفلسفية د / أحمد الأهوني صـ ٢٨ - ٢٩ ، قصة الفلسفة. ول ديورانت صـ ١٩ . ترجمة فتح الله محمد المشعشع . منشورات مكتبة المعارف . بيروت . ط ٥ . ١٤١٥ هـ - ١٩٨٥ م) .

(٣) أرسطو طاليس : فيلسوف يوناني شهير ولد عام ٣٧٤ ق. م ينتمي لأسرة عريقة في الطب وقد توفي عام ٣٢١ ق. م بعد أن ترك وراءه تراثاً عظيماً في مختلف المجالات العلمية ، والسياسية ، والنفسية والأخلاقية .
(انظر : موسوعة الفلسفة . د . عبد الرحمن بدوي ، ط ١ ، صـ ٩٨ – ٩٩ . المؤسسة العربية للدراسات . ط ١ ١٩٨٤ ، أرسطو . د. عبد الرحمن بدوي صـ ٢٠٥ . مطبعة لجنه التأليف والترجمة . نشر دار النهضة المصرية . ط ٢) .

(٤) سقراط : فيلسوف يوناني ولد حوالي ٤٧٠ ق. م وقد توفي عام ٣٩٩ . ق. م بعد أن حكم عليه يتجرع السم بعد أن أتهم بإفساد الشباب .
(انظر : موسوعة الفلسفة . د . عبد الرحمن بدوي جـ ١ صـ ٥٧٦ – ٥٧٨)

(٥) مبادئ الفلسفة . أ . س . وابوبرت ، . ترجمة أحمد أمين صـ ٥ . نشر مكتبة نهضة مصر ط ٨ .

مراحل الفلسفة

لقد مرت الفلسفة باعتبار الزمان إلى مراحل متعددة جاءت على النحو التالي : -

١- فلسفة قديمة . ٢- فلسفة العصور الوسطى .
٣- فلسفة حديثة . ٤- فلسفة معاصرة .

أما بالنسبة للفلسفة القديمة فقد اشتملت على فلسفات كثيرة منها :-
فلسفة يونانية . فلسفة صينية . فلسفة فارسية .
فلسفة مصرية قديمة. فلسفة هندية .

وأما فلسفة العصور الوسطى فقد اشتملت هي الأخرى على فلسفات متعددة وهي :
فلسفة إسلامية. فلسفة مسيحية. فلسفة يهودية.

وأما الفلسفة الحديثة : فقد اشتملت على فلسفات كثيرة واختصت بالبحث عن حقيقة العلم ، ولذلك نبذت الدين جانبا وجعلت العلم هو مقياس كل شيء . ومن أمثلة ذلك الفلسفة الواقعية ، والفلسفة الدروانية ، وفلسفة التحليل النفسي .

وأما الفلسفة المعاصرة فقد اشتملت هي الأخرى على تيارات متعددة ، فهي فلسفة تعبر عن حيرة الإنسان في هذا العصر من الزمان ، وهى فلسفة القلق واليأس والتمرد والرفض ، فلسفة اللامعقول والعبث قبل أن تكون فلسفة العقل والمعقول ، هذه الفلسفة لا تريد أن تتصل بالماضي وترفض أيضا أن تنتمي إلى تاريخ الفكر الإنساني .

وفيلسوف الفلسفة المعاصرة يحاول كشف النقاب عن لا معقولية الوجود والحياة " ومارتن هيدجر " يعتبر هو مؤسس الفلسفة الوجودية العاصرة [1].

ومن بين هذه الفلسفات الفلسفة البراجماتية ، ذلك المذهب النفعي الذي لا يؤمن بالفكرة ولا يعترف بوجودها إلا من خلال ما تؤديه من منفعة عملية في حياة الناس . فالفكرة التي لا يترتب عليها منفعة لا وجود لها .

---

(١) انظر : الفلسفة الإسلامية بين المشرق والمغرب . د/ سعيد الهواري صـ ١٨- ١٩ . الدار الإسلامية للطباعة . ط١ ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م

الفلسفة والتأريخ لها

يختلف تاريخ الفلسفة عن تاريخ سائر العلوم الأخرى اختلافا جوهرياً فتاريخ العلوم الأخرى لا يشكل في الغالب جزء منها بخلاف الفلسفة .

فهي العلم الوحيد الذي ينطوي في ذاته على تاريخه الخاص ؛ وذلك لأننا لا يمكن أن نفصل الفكر الفلسفي عن بيئته الحضارية والتاريخية ، بينما نستطيع في أي علم أخر أن نفصل بين موضوع العلم وتاريخه .

ففي علم الطبيعة مثلاً نستطيع الفصل تماما بين تاريخ هذا العلم وبين ما يدرسه عالم الطبيعة المعاصر من مشكلات ، ولكننا في نطاق الدراسة الفلسفية لا نستطيع أن نفعل مثل هذا فالمشكلة الفلسفية تظل في جوهرها وتتطلب . حلولا مختلفة بحسب تطورات الفكر في كل عصر من العصور [١].

فلتاريخ الفلسفة أهمية جليلة بالنسبة إلى الفلسفة ، فهو فلسفة متجددة ، وقضايا الفلاسفة القدماء ستظل باقية أبداً وإن تلونت بعناصر جديدة .

ويشكل تاريخ الفلسفة جزءا منها ، ويوقف الباحث على أصالتها ، ويساعده على لقط الأفكار التي تحتاج إلى التمحيص ، ويثير في الدارس لها روح البحث النزيه ، والتفكير الدقيق .

وفيه كشف للمحاولات التي قام بها الفلاسفة رغبة في حل المشاكل التي عرضت لهم ويهدى تاريخ الفلسفة إلى مواطن الخطأ في محاولات الفلاسفة . ومواطن القوة في تفكيرهم[٢] .

---

(١) انظر : دروس في الفلسفة د. إبراهيم مدكور ، أ. يوسف كرم صـ ل – م .المقدمة ، تمهيد للفلسفة . د. محمود زقزوق صـ ٧١، مبادئ الفلسفة . د. منال سمير الرافعي صـ ٥٤- ٥٥ . ط ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

(٢) انظر : أسس الفلسفة . د. توفيق الطويل . صـ ٢٢- ٢٣ .

وتاريخ الفلسفة فيه بيان لعرض مشكلات الفلسفة والأدوار التي مرت بها ، وهو يسمح بالإلمام بالمسائل الفلسفية المختلفة ومتابعتها في لحظات نهوضها وتقدمها أو ضعفها وانحطاطها .

وتكسب دراسة تاريخ الفلسفة دقة في الحكم ومهارة في النقد وسعة في النظر .

وتمكن الباحث من الإحاطة بأطراف الأشياء المختلفة والموازنة بين الآراء المتعارضة . وفوق ذلك فإن هذا التاريخ يوقفنا على آثار الفلاسفة العقلية ومعاركهم الفكرية وخصوماتهم العلمية وتقدير نصيبها من الخطأ والصواب فتاريخ الفلسفة منهج خاص يلخص في كلمتين : فهم وتقدير [١] .

فتاريخ الفلسفة ذاته ليس رصدا ميتا للمذاهب والنظريات الفلسفية عبر التاريخ دون رجوع إلى ظروفها التاريخية بل هو مراجعة الواقع عبر التاريخ .

فالرصيد الكمي لتاريخ الأفكار بلا منظور أو دلالة : فيه موت للفلسفة . أما محاولة الدخول في أعماق التاريخ إلى ما وراء الأفكار لمعرفة دلالتها على عصورها – وظروف نشأتها وصلتها بما قبلها ، وتمهيدها لما بعدها وهذا النمط من تاريخ الفلسفة يمدها بالحياة ويؤدى إلى نموها وازدهارها . ما دامت مرتبطة بالتاريخ .

وحين تنفصل الفلسفة عن تاريخها فإنه يحكم عليها بالموت . لكونها خارج التاريخ . لا شأن لها بتطور الروح البشرى ، ولا بحياة الشعوب . وتظل فلسفة لا في زمان ولا في مكان [٢] .

وعلى هذا فلا مغالاة إذا قلنا : إن الفلسفة ابنة عصرها . الذي تعيشه لتعبر عما يذور فيه من أزمات .

---

(١) انظر : دروس في تاريخ الفلسفة . د. إبراهيم مدكور . صـ . ل - م من المقدمة .

(٢) انظر : عالم الفكر . المجلد الخامس عشر . العدد رقم ٣/ ديسمبر/ ١٩٨٤ مقال الدكتور . حسن حفني . متى تموت الفلسفة ومتى تحيا صـ ٨٧.

وهي تقدم ما تراه من حلول تعبر عن تصور زمنها الذي تحياه .
بل قد تتجاوز بهذه الحلول عصرها إلى ما بعده .

ومن هذا كله ندرك الترابط الوثيق بين الفلسفة وتاريخها ، فانفصالها يشبه فصل الروح عن البدن .

وإثبات الروح مجرد غير مرئية لا وجود لها إلا في عالم الغيب .

ووجود جثة هامدة لا حركة فيها تنحل بعد حين من الزمن .
يؤدى ذلك إلى اندثار الأمم وفناء الشعوب[1] .

وخير ما نختم به الحديث عن أهمية تاريخ الفلسفة للفلسفة هو رأى الدكتور : محمد غلاب إذ يقول :

" تاريخ الفلسفة هو تاريخ العقل البشرى فقد أبرز مقدرته على حل مشكلات الوجود وتطويرها ، وأبان له كيف يستطيع من خلال المصادمات والمحن أن يصل إلى معرفة الحقيقة ، ومنذ ذلك الحين أخذ تاريخ الفلسفة يسمو نحو الكمال [2].

وهكذا يتضح لنا أن لتاريخ الفلسفة مكانة عظمى ، فلا يمكن إهماله أو الاستغناء عنه ، فهو جزء من الفلسفة لا يكتمل فهم مسائلها بدونه ، ولا يستطيع المرء أن يقف على حقيقة المشكلة الفلسفية ويلم بها إلماماً كاملاً صحيحا بدونه .

فتاريخ الفلسفة يمهد للوصول للحقيقة ويكشف عن كثير من الآراء والأفكار التي ترددت في الماضي ، إلا أنها في نفس الوقت تساعد على التقدم في الحاضر والتخطيط للمستقبل .

---

(١) انظر : محاضرات في الفلسفة العامة د . أحمد عبد الوهاب صـ ٤ .

(٢) انظر : المعرفة عند مفكري المسلمين د . محمد غلاب صـ ١١ الدار المصرية . للتأليف والترجمة ١٩٦٨م.

خصائص الموقف الفلسفي

من المعلوم أن الفلسفة نوع من النشاط العقلي فهي تنتمي في الإنسان إلى " أسمى ما وهبه الله عز وجل وهو الفكر ، ذلك النشاط العجيب الذي ميزه الله به عن غيره من المخلوقات لكي يحقق لنفسه المكانة اللائقة به في هذا الكون ، والفيلسوف يستوقف ذهنه العامل الفعال موقف أو مشكلة تستثير فيه ملكة التأمل طالبة منه تقديم حل أو كشفا ما أو نوعا من التعامل الواعي معها " (١).

ومن هنا كان للموقف الذي يقفه الفيلسوف من مشكلة ما خصائص وسمات خاصة تميزه عن بقية المواقف الأخرى التي من الممكن أن يقفها غير الفيلسوف ، فالفيلسوف يختلف عن غيره في نظرته للكون بأسره من هنا كانت مواقفه الفلسفية تمتاز بجملة من الخصائص وهي على النحو التالي :-

١- أنه موقف قلق حائر تغلفه الدهشة :

فالقلق والحيرة والدهشة هي نقطة البداية في الموقف الفلسفي لهذا نجد أرسطو يقول : " إنما الدهشة هي الأم التي أنجبت لنا الفلسفة ! فالفيلسوف لا يملك سوى أن يقف ذاهلاً أمام سر الوجود ، وكأنما هو حدث صغير يشهد العالم للمرة الأولى ، فلا يكاد يكف عن إثارة السؤال ، ولا يكاد يفتح فمه إلا لكي ينطق بكلمة لماذا " (٢) وكيف تم ذلك ؟ ولما لم يأت على صورة أخرى ؟ وما النتائج التي تترتب على هذا الفعل ؟...

إن هذه الأسئلة وغيرها هي التي تتردد على لسان الفيلسوف وتدور في ذهنه وقد تبدو هذه الأسئلة لغير الفيلسوف لا قيمة لها .

---

(١) مقدمة في الفلسفة العامة . د. مصطفي حلمي ، د. مختار محمود عطا الله صـ ١٣ دار الثقافة العربية ١٩٩٦.

(٢) مشكلة الفلسفة . د. زكريا إبراهيم صـ ١٦ .

إن الأمر عند الفيلسوف مختلف فهي نقطة البداية للتفكير الصحيح في المشكلة وإيجاد حل صحيح لها . فالموقف الفلسفي يبدأ بالقلق والدهشة وذلك نتيجة لموقف يعتري الإنسان ، أو مشكلة تصادفه . فالدهشة كفيلة بإثارة الفكر واتخاذ موقف معين قد يصل لجعلنا " نتخيل كل شيء مختلفاً عما هو عليه فهي تري المألوف كما لو كان غريبا ، والغريب كما لو كان مألوفاً " [١].

٢- الموقف الفلسفي موقف تفكير عميق وتأمل طويل :

إذا كانت الدهشة أولي سمات الموقف الفلسفي وكذا أولي بواعث التفلسف فهي مع هذا نقطة البداية التي ينطلق منها الفيلسوف لمحاولة إيجاد حل للمشكلة التي يقف أمامها .

فمجرد مواجهة المشكلة لا يكفي لإيجاد موقف فلسفي ، بل لابد من أن تثير المشكلة تفكير الإنسان وتخضع لتأملاته التي تستهدف وضع حل لها [٢].

وهذا ما يحدث للفيلسوف ؛ تصادفه مشكلة ما فيقف أمامها متأملا فيها بهدف الوصول إلي إجابات شافية وحلول مقنعة .

وهذه السمة هي التي تميز الفيلسوف عن غيره . تدفعه إلي نوع من العزلة .

فالفيلسوف لابد أن يهيئ لنفسه مناخا خاصا محوطاً بالهدوء والسكينة حتى يضمن لنفسه عدم التأثير بمن حوله من آراء شائعة ، وهذه العزلة ليست أبدية تعزل الفيلسوف عن مجتمعه وحياته . وإنما هي عزلة مؤقتة تزول بمجرد وقوفه على حل للمشكلة التي أمامه بعدها يعود لمجتمعه ليستفيد منه مادة فكرة التي لولاها لم يكن له

---

(١) مقدمة في الفلسفة العامة . د . مصطفي حلمي صـ ١٤ .
(٢) أنظر : أسس الفلسفة . د . توفيق الطويل صـ ٢١٦ .

فلسفة[1] ومعنى هذا أن عزلة الفيلسوف إنما من أجل مجتمعه كما أن اختلاطه به لأجله .

فهو يختلط به ليقف على مشاكله فيجعلها مادة لفكرة ثم يخلو بنفسه وتقف أمام هذه المشاكل يتأمل فيها إلي أن يصل إلي الحقيقة فيقوم بتحليلها وتركيبها بعيداً عن أي شوائب أو مؤثرات فالفيلسوف على هذا لا تنقطع صلته بمجتمعه سواء كان مخالطاً له أم معزولاً عنه . فهو وحده لا شيء على الإطلاق .

يقول أحد الباحثين :

فليس الفيلسوف كما يتوهم البعض مجرد مخلوق غريب عن العالم ، وينفر من الناس ، وينطوي على نفسه . بل هو إنسان واقعي يعلم أن وجوده بالآخرين . فهو لا يعيش بمعزل عن مجتمعه إلا لكي يتمكن من النظر إليه والعمل على تقويمه ، ولا ينأى بنفسه عنه إلا محاولة منه في تحديد موقفه منه وتعميق الصلة به [2].

وقصارى القول في هذا : أن الفيلسوف هو ذلك الشخص الذي يقدم حلولاً لمشاكل مجتمعه بعد تفكير عميق وتأمل طويل ، وهذه الظاهرة من السمات المهمة التي تميزه عن غيره من أبناء مجتمعه ، ولا نغالي إذا قلنا : أنها تميزه " عن غيره من عامة المفكرين ، لأن الفيلسوف هو المفكر الذي لا يكاد يكف عن امتحان قدرته الذهنية وسبر أغوارها والعمل على إدراك حدودها " [3].

---

(١) أنظر : مقدمة في الفلسفة العامة . د . مصطفي حلمي وزميله صـ ١٤ ـ ١٥ .
(٢) أنظر : مشكلة الفلسفة . د . زكريا إبراهيم صـ ٨٢ ـ ٨٣ .
(٣) نفس المصدر صـ ٨٩ ـ ٩٠ .

٣- الموقف الفلسفي في موقف شك :

من بين الخصائص التي يتميز بها الموقف الفلسفي أنه موقف شك وريبة فلا يمكن للفيلسوف أن يحصل معارفه أو يكون لنفسه مذهب فلسفي إن لم يكن عنده شك فيما حصله معارفه مسبقة أوقف عليه من آراء . فبدونه لا يكون فلسفة ولا يكون عنده تفلسف ، فالموقف الفلسفي موقف شك يرفع فوق الاعتقاد التعسفي الذي يفتقر إلي ما يبرره ، وبغير الشك المنهجي الذي ينشد المعرفة الحقيقة لا يكون تفلسف فالفلسفة – في حقيقتها – موقف للعقل الناقد إزاء أفكار ومعتقدات يسلم بها الناس عن جهل أو سذاجة ، فهي لا تعترف بالقضية التقليدية التي تزعم أن كل لبيب يعرف لكل مشكلة حلها ، فوظيفة الفلسفة لا تتمثل في وضع حلول المشاكل ، بل تتمثل في تقييد الحلول الموضوعة للمشاكل (1).

ومعنى هذا أن الفيلسوف لا يقنع بما عليه عامة الناس من أفكار وعقائد ولا يسلم بها دون أن يضعها موضع الشك .

لكن ينبغي التنبيه على أمر مهم وهو : أن الشك المراد لدي الفيلسوف هو الشك المنهجي الذي يهدف من ورائه الوصول إلي الحقيقة ، وليس هو الشك المذهبي الارتيابى الذي يتخذه الفيلسوف مذهباً له كما فعل (جورجياس السوفسطائي . ٤٨٣ – ٣٧٥ ق . م) فقد شك في كل شيء . فهذا النوع من الشك " هدام سلبي يضر بالفكر ولا يقدم جديداً ، أما الشك المنهجي فهو روح الفلسفة التي هي في حقيقتها موقف رافض للإيمان الساذج بشيء ما ، أو التسليم التلقائي بصحة قضية أو فسادها ، أو بالأحرى فهو رافض للاعتقاد التعسفي ، والتعصب المطلق لما هو موروث لأنه موروث فحسب ، وهذا الشك يظهر بجلاء الجانب السلبي في التفكير الفلسفي . والمراد بالجانب السلبي الموقف النقدي الذي يفند من خلاله الفيلسوف الآراء

(1) أنظر : أسس الفلسفة د . توفيق الطويل صـ ٢١٦ .

والمذاهب والمقالات ، وهو جانب مقدم تقديم رتبة على الجانب الذي يقرر فيه المذهب والرأي الذي يراه و يتمذهب به " [١].

ومن هنا يتضح لنا فهم ما أورده الغزالي في كتابه القيم " ميزان العمل " ففي معرض حديثه عن الشك المنهجي يقول :

الشكوك هي الموصلة إلي حقائق فمن لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقي في العمي والضلال [٢].

فالشك المنهجي هو روح التفكير الصحيح المنظم كما أنه أداة تمكن الفيلسوف من الاطمئنان إلي ما انتهى إليه .

٤- الموقف الفلسفي موقف تسامح وسعة صدر :

وهذه السمة ترتبط بما قبلها إذ لا يكفي في الموقف الفلسفي أن يساور الإنسان شك بصدد معتقداته ، بل يقتضي هذا الموقف أن يستقبل الإنسان معتقدات غيره بالتسامح وسعة الصدر. إنه يصغي للجميع ولا يضيق ذرعا بوجهات النظر الأخرى ، إلا إذا وجد ما يبرر استخفافه ، وهو يتحاور مع المخالفين في هدوء فإنه متي اختلف عاقلان وجد كل منهما ما يتعلمه من الأخر [٣].

فهذه السمة تعد أهم سمة للموقف الفلسفي ، فالفيلسوف الحق لا يرفض الرأي الآخر أو يعارضه إلا إذا كان لديه من الأدلة والبراهين التي تؤيد ما يتمسك به أو يدافع عنه .

فالموقف الفلسفي موقف تسامح وسعة صدر يسمح بقبول الرأي الأخر ومناقشته والتعرف عليه والتسليم به إن كان له ما يدعمه ويؤكد على صحته .

---

(١) مقدمة في الفلسفة العامة د . مصطفي حلمي وزميله صـ ١٥ ـ ١٦ .
(٢) أنظر : ميزان العمل . للغزالي . تحقيق د . سليمان دنيا صـ ١٠٩ ، دار المعارف ١٩٦٤م .
(٣) أنظر : أسس الفلسفة . د . توفيق الطويل صـ ٢١٧ ، مقدمة في الفلسفة العامة . د . مصطفي حلمي وزميله صـ ١٦ .

٥- الموقف الفلسفي يتسم بالمثابرة والمرابطة :

الفيلسوف يسعى للوصول للحقيقة وفي سبيل الوصول إليها يكرس حياته لها فهو لا يتسرع ولا يرضي بالحلول القريبة . حيث إن الفيلسوف لا يهمه النتيجة التي يقف عليها بقدر ما يهمه دقتها وصحتها ، ومن ثم فإن التأمل الخاطف العجول أو الشك المنهجي المؤقت لا يكفي لجعل صاحبه فيلسوفاً .

إن الموقف الفلسفي وليد تفكير نظري استغرق زمناً طويلاً ، والفلسفة التماس للفهم الذي يأبى أن يستكين لما يصادفه من متاعب ؛ بل أنه يصبر على تكاليف البحث ويصر على متابعة الرحلة ويغوص في الأعماق حتى يتسنى له أن يكشف الحجب ، ويرفع عن الحقيقة الأستار [1] .

وقصارى القول في هذا : أن للفيلسوف هدفاً سامياً يسعى له. الأمر الذي يحتم عليه أن يتمهل ويتأنى فيما ينظر فيه من مشكلات وآراء حتى يتسنى له الوقوف على الحقيقة من كل جوانبها هذا من ناحية ، ومن ناحية أخري فإن هذا التأني يتيح له نوعاً من الهدوء الفكري يمكنه من تغيير كثير من الأمور المبهمة وحل كثير من المعضلات ، وتفسير كثير من المشكلات .

٦- الموقف الفلسفي لا يعرف الجمود والتحجر والتمسك بالرأي :

يتسم الموقف الفلسفي بالمرونة والانفتاح على الآخرين فهو دائماً يميل إلى الاسترشاد بما تشير به الخبرة ويمليه العقل إذ إن أكثر المشاكل الرئيسية لا يتضمن في باطنه كل حقائقه . ومن ثم فإن الموقف الفلسفي يتسم دائماً بالاستعداد لاستبدال الآراء بغيرها متى

---

(١) أنظر : أسس الفلسفة د. توفيق الطويل صـ ٢١٧ .

أيدت الخبرة أو المنطق ذلك ، فكثيراً ما يقودنا التفكير المنطقي إلى ضرورة التخلي عن بعض معتقداتنا وإحلال معتقدات أخري محلها . متى وجدنا في غيرها ما يبرر التسليم بها . من هنا قيل : إن الموقف الفلسفي يميل إلى الاسترشاد بمنطق العقل (١).

٧- الموقف الفلسفي موقف رافض التقليد :

يعد التقليد آفة الفيلسوف والعالم على حد السواء فهو موقف مضاد للنظر العقلي (٢).

فمن المعلوم إن للنظر العقلي غاية يسعى إليها وهي الكشف عن الحقيقة والوصول إلى المعرفة اليقينية بشرط السير فيه وفق شروطه وضوابطه .

وقد كان لفلاسفة الإسلام موقف واضح في رفض التقليد نظراً لوجود علل تترتب على المرء من ورائه فها هو الفارابي يقول : " ثم لا يغرنك وجود أناس كثيرة على أراء مدخولة ، فإن جماعه المقلدين لرأى واحد ، المدعين لإمام يؤمهم فيما اجتمعوا عليه ، بمنزلة عقل واحد ، والعقل الواحد ربما يخطئ في الشيء الواحد " (٣).

فهو يرفض التقليد ؛ لأنه يري فيه اقتصاراً على العقل الواحد الذي لا يسلم من الخطأ بخلاف عقل الجماعة أو العقول المختلفة فهي أقرب إلى الصواب خصوصاً " إذ اتفقت بعد تأمل منها ، وتدرب ، وبحث وتنفير و معاندة وتبكيت ، وإثارة الأماكن المتقابلة ، فلا شيء أصح مما اعتقدته واتفقت عليه " (٤) .

---

(١) انظر : نفس المصدر صـ ٢١٧.

(٢) انظر : مقدمة في الفلسفة العامة . د. مصطفي حلمي وزميله صـ ١٦-١٧ .

(٣) الجمع بين رأيي الحكيمين . للفارابي صـ ٨١- ٨٢ قدم لـه وعلق عليه . د . البير نصري نادر . دار المشرق بيروت . ط ٤ .

(٤) نفس المصدر صـ ٨٢.

فالموقف الفلسفي يرفض التقليد ؛ لأنه عبارة عن ترديد لأقوال الغير والتسليم بها ، وهذا ما يتنافى مع الروح الفلسفية التي تسعى للبحث وتميل للكشف عن الحقيقة كما أنه يضاد النظر العقلي الذي يحث على تمحيص الآراء والمقارنة بينها ثم بيان أيها أصوب ومحاولة تقويم الآراء الأخرى التي جاءت على نحو أخر بعيد عن الصواب .

٨- الموقف الفلسفي موقف موضوعي محايد :

يتميز الموقف الفلسفي بالموضوعية التامة . فالفيلسوف عند تعرضه لمشكلة ما من المشكلات يدرسها دراسة موضوعية تامة . يتحرر فيها من عواطفه وميوله ، كما أنه يتحرر من الأفكار السابقة فلا يتمسك بها ويجعلها تؤيد وجهة نظرة أو تؤيده قبل أن يتأكد منها .

فالفيلسوف لا غاية له إلا طلب الحق والوصول إلى أرقي درجات اليقين ، وفي سبيل ذلك لابد له من التحرر من المغريات الأخرى كالمال والشهرة والمنصب .

فالروح الفلسفية تتميز بالموضوعية وترتفع فوق مؤثرات الحب والكراهية [١] .

وقد عبر ابن حزم عن هذه الروح الواجبة بقوله " ولابد لطالب الحقائق من أن يسمع حجة كل قائل ، فإذا ظهر البرهان لزمه الانقياد والرجوع إلية ، وإلا فهو فاسق " [٢] .

ولهذا نجد توجيهات القرآن الكريم صريحة في الدعوة إلى التزام المحايدة التامة .

---

(١) انظر: أسس الفلسفة .د. توفيق الطويل صـ٢١٦ .

(٢) الرد على ابن التغزيله اليهودي . ابن حزم صـ ١١٤ نقلاً عن مقدمة في الفلسفة العامة . د. مصطفي حلمي وزميله . صـ ١٨ .

قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (١).

" وفي إطار الفكر الإسلامي فإن الفلاسفة بالنسبة للمتكلمين كانوا إلى حد ما ، ولو على المستوي النظري أكثر التزاماً بالموضعية بالمعني السابق وذلك ؛ لأن الموضوعية بهذا المعني مخالفه لمنهج المتكلمين المبني على طرح فكرة هي من أساسيات المذهب الكلامي الذي يتبعه المتكلم ، ثم يسلك منهج لإثبات صحتها " (٢) .

٩- إن الموقف الفلسفي يتسم بالتعليق المؤقت للحكم :

لأن صاحبه يميل إلى أن يظل في ريب بشأن كل موضوع لا يجد دليلاً كافياً على صحته ، ويؤثر أن يعلق الحكم ويتوقف إصدارة طالما أن النتائج تفتقر إلى ما يؤيدها أو يبررها (٣) .

لهذا لا غرابة أن نجد الفيلسوف في كثير من الأحيان وأمام العديد من المشكلات يعتزل الناس دون أن يبدي رأيه في هذا إلا بعد فترة ، فذلك راجع لطبيعة تفكيره ، فهو لا يدلي برأيه في مسألة ما دون أن تكون لدية من الأسباب ما يؤيده والبراهين ما يدعمه .

١٠- انه موقف نظر عقلي يرتفع فوق الشك الهدام الذي يؤدي بصاحبه على الدوام إلى التوقف عن التفكير وتعليق الحكم ، ولا يبلغ في الوقت نفسه مرتبة الاعتقاد

(١) سورة المائدة من الآية رقم (٨) .
(٢) مقدمة في الفلسفة العامة . د. مصطفي حلمي وزميله صـ ١٨ .
(٣) انظر : أسس الفلسفة د. توفيق الطويل صـ ٢١٧ .

الجازم الذي يحول دون تفنيد الرأي المعتقد فيه ، ولذا قيل : إن الموقف الفلسفي يتميز بالجمع بين الشك والاعتقاد .

أي أنه إذا لم تتوافر لديه عناصر الموضوع الذي يدرسه يحاول أن يجد له تفسيراً مناسباً في ضوء ما تيسر له منها ، فهذا موقف اعتقادي ، ولكنه ليس تعسفياً قائماً على الجزم برأي أو القطع بحكم ، وكما أن طبيعة التفلسف تنفر من الاعتقاد الجازم ، فهي تتنافى مع الإمعان في الشك الموغل الذي من شأنه أن يعرقل النظر العقلي ، ويشل انطلاق التفكير [1] .

من خلال ما سبق عرضه يتضح لنا ما يتميز به الموقف الفلسفي عن غيرة من المواقف الأخرى .

فالموقف الفلسفي يتسم بجملة من الخصائص التي لا نجد لها مثيلاً في التفكير العادي ؛ لهذا نجد انه متي اجتمعت هذه الخصائص في شخص ما أطلق عليه فيلسوف حيث إن فكر الفيلسوف يتسم بالطابع الكلي ، كما أن نظرته للأمور نظرة شاملة لا تقنع بجزئيات الأشياء أو تبقي على سطحها ، وإنما هي نظرة متيقظة تري ما لا يراه الفكر العادي وتنفذ إلى الأعماق مستخدمة التأمل الفاحص في البحث عن حقائق الأشياء متفتحة على أفق المعرفة الواسع ، لا تضيق بالنقد ولا تحجر على فكر الآخرين .

هذا في حين أن الفكر العادي على النقيض من ذلك ، صاحب نظرة جزئية ضيقة تقنع بظواهر الأشياء ، وتعوقه ضوضاء الحياة اليومية ومطالبها الوقتية عن الالتفات إلى حقائق الأشياء ، وعن التيقظ الباعث على التأمل .

---

(١) انظر : نفس المصدر . صـ ٢١٧ .

وبذلك يظل مثل هذا الفكر محصوراً في أضيق نطاق وبالتالي لا يطيق النقد ولا يقبله ، وليس لدية استعداد للتفتح على ما عند الآخرين من أفكار وآراء والتعرف عليها [١] .

فطبيعته ترفض هذا ، كما أن عقله يأبى التعرف على آراء الغير والوقوف على ما فيها من حق أو باطل . فهو ينظر للأمور بمنظار خاص لا يقبل بغيره ولا يرضى به بديلا . لهذا جاءت أفكاره محدودة ، ونظرته قاصرة ورؤيته للأشياء تكون على غير وجهتها الصحيحة .

ولهذا حرص أرسطو على أن يحدد أهم الخصائص التي تميز الروح الفلسفية ، فنص على صفات كثيرة ، لعل أهمها :

١- **العموم والشمول** : حيث إن الفلسفة تتصف بروح التأليف والجمع والتوحيد .

٢- **التجريد والسمو النظري** : فالفيلسوف يرقى إلى اعلي المشكلات وأبعدها عن الواقع المشاهد .

٣- **النزاهة وامتناع الغرض الخاص** : فالفلسفة تطلب لذاتها لا لغرض آخر .

٤- **الاستقلال والتفوق** : فالفيلسوف رجل حر لا يخضع لحكم غيره.

٥- **أخيراً [٢] صفة الألوهية [٣].**

(١) أنظر : تمهيد الفلسفة . د. محمود زقزوق صـ ١٦ .
(٢) مشكلة الفلسفة .د. زكريا إبراهيم صـ ٢٤ .
(٣) وصف أرسطو الفيلسوف بصفة الألوهية وهذا خطأ ، ونحن لا نوافق على هذه الصفة الأخيرة لأنها نابعة من الوثنية اليونانية التي تأثر بها فلاسفة اليونان أجمعين . لكن لا نخالفه في الخصائص التي تقدمتها . (انظر : مدخل إلى الفلسفة . د. أحمد رمضان . هامش صـ ٢٥) .

خطوات الموقف الفلسفي

الموقف الفلسفي موقف خاص بالفيلسوف لا يتعداه لغيره فهو يتكون من عدة خطوات جاءت على النحو التالي :-

الأولى : الابتعاد عن الحياة الدارجة :

الابتعاد عن أمور الحياة العادية واليومية شرط أساسي لكي يصل الفيلسوف إلى هدفه الذي لا بد منه .

فطريق التفلسف يقتضي الابتعاد عن الحياة اليومية الدارجة بمشاكلها الجزئية المتعددة وطابعها البليد وثرثرتها الدائمة وتعصبها الأجوف ، فإذا رفض الفيلسوف هذه الحياة ونأى عنها حفاظا على ذاته ، فإنه يكون قد خطا الخطوة الأولى في طريق الفلسفة ، ووضع اللبنة الأساسية في طريق التفلسف وبذلك يصبح الجو مهيئا أمامه للنظر في المسائل الكلية التي تكون موضوع الفلسفة ، فالفلسفة كانت ولا تزال علم الوجود الكلي ، كما عرفها " أرسطو " وهذه هي الخطوة الأولى من خطوات الموقف الفلسفي (١) .

الثانية : رد العالم الخارجي إلى الذات :

الموقف السابق يقتضي من الفيلسوف أن يقوم بعملية رد العالم الخارجي إلى الذات .

فهي خطوة ضرورية من خطوات الموقف الفلسفي فالفيلسوف عندما يريد أن يدرس " الوجود " في صورته الكلية العامة فإنه يجد لزاما عليه أن يتبع الخطوة الأولى بخطوة ثانية ، يرد فيها العالم الخارجي في صورته الجارية إلى ذاته ، بعد أن بعد عنه فترة مؤقتة (٢) .

---

(١) انظر : مقدمة في الفلسفة العامة . د / يحيى هويدي . ص ٤١- ٤٢

(٢) انظر : مقدمة في الفلسفة العامة . د / يحيى هويدي ص ٤٢ ، مدخل إلى الفلسفة د / أحمد رمضان ص ٢٦

فهذه الظاهرة ظاهرة ارتداد الفكر إلى ذاته من السمات العامة التي يمتاز بها الفيلسوف عن غيره من المفكرين .

فالفيلسوف هو الشخص الذي لا يكف عن اختبار قدراته الذهنية حتى يتأكد قبل الشروع في استعمالها من أنها صالحة للوظيفة التي خلقت لها ، وليس كذلك عامة الناس في تفكيرهم [١].

الثالثة : النظرة الكلية إلى الوجود :

يجب أن يفهم أن عملية الرد هذه لا تعنى أن يستمر الفيلسوف في عزلته ، ويقطع صلته بالعالم الخارجي ، فالفيلسوف إنسان يعيش في العالم فمن المستحيل أن يعزل نفسه عن هذا الوجود الواقعي ، وينشئ لنفسه وجودا خاصا به وحده ، يجتر فيه ذاته ضاربا صفحا عما تموج به الحياة من حوله .

ويعنى ذلك أنه لابد للفيلسوف – بعد أن يرد العالم الخارجي إلى الذات – أن يسعى إلى أن ينشئ عملية أخرى يقوم فيها بالربط بين نفسه وبين الوجود الخارجي من خلال خلوه فكرية تكون أشبه بالعزلة [٢].

وهذا " الانعزال " الذي قد يراه بعض الباحثين في موقف الفيلسوف ليس في الواقع انعزالا حقيقيا . وإنما الفيلسوف الذي ينشد الوضوح لابد له لكي تتجرد نظرته من شوائب المادة وعلائقها من ممارسة التفلسف في جو بعيد عن صخب الحياة وضوضائها ، وليس الفيلسوف وحده في أشد الحاجة إلى ذلك ، وإنما كل فرد يحتاج إلى ذلك حين يحاول التغلب على أي مشكلة من مشاكله . وكذلك الطالب يحتاج إلى مثل هذه الخلوة .

وهكذا نجد أن الفيلسوف لا بد له من هذه " العزلة " المؤقتة التي ليست هدفا في ذاتها ، وإنما هي فقط مجرد وسيلة يستعين بها الفيلسوف على أداء واجبه وبلوغ هدفه [٣] من التفلسف .

---

(١) انظر : مع الفلسفة في بعض مشكلاتها . د / جمال الدين عفيفي صـ ٣٩ . دار الطباعة المحمدية . طـ ١ . ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م .

(٢) انظر : مقدمة في الفلسفة العامة . د/ يحيى هويدى . صـ ٤٢ .

(٣) انظر : تمهيد للفلسفة . د / محمود زقزوق . صـ ١٦- ١٧ .

وعلى هذا فإن التفلسف يقتضي حركتين متلازمتين من حركات الفكر :

الأولى : حركة يرجع فيها الفكر إلى نفسه في نوع من الخلوة العقلية يخلص فيها إلى ماهيته وشحذ قواه ، ويضرب صفحا عن الانخراط في تيار الحياة الجارية .

الثانية : حركة يخرج فيها إلى الواقع الخارجي ، ليتفهمه ويتعامل معه ، بعد أن يكون التأمل العقلي قد أملى عليه ظروفا خاصة بالبحث ، تجعله لا يحفل إلا بأكثر المسائل عموما وشمولا وهي الكليات ، وبأكثر هذه الكليات عموما وهو مبحث الوجود أو الكون ككل ، وعلاقة الإنسان به [١].

وعلينا بالتالي في الموقف الفلسفي أن نتفادى خطأين يؤديان بنا إلى البعد والحيدة عن طريق التفلسف :

أولهما : أن نتعلق بجزئيات الحياة اليومية ، وننسى أن البحث الفلسفي بحث وراء معرفة الوجود ككل .

ثانيهما : أن نركن إلى حياة الذات مكتفين بتأمل " الأنا " غافلين عن أن الإنسان جزء من العالم المحيط به ، وأن كيانه مرتبط بعالمي الأشياء والأشخاص ، وأنه لا بد من أن يتفاعل مع هذين العالمين تأثيرا فيهما وتأثرا بهما ، فإذا تفادينا الخطأ الأول ، استطعنا أن نبتعد قليلا عن التجربة اليومية التي هي خط مشترك بين سائر الناس وتتعلق بالحقائق الكلية التي هي هدف الفلسفة ، وإذا تفادينا الخطأ الثاني استطعنا أن نصل بين البحث عن الحقائق الكلية وبين الواقع بحيث يتفاعل طلب الحقيقة المجرد مع احتكاكات الواقع وصدماته وشكائمه والفلسفة بعد هذا – ليست إلا محاولة فهم هذا التفاعل بين الإنسان والوجود الكلى [٢].

---

(١) انظر : مقدمة في الفلسفة العامة . صـ ٣٥ ٣٦

(٢) انظر : نفس المصدر صـ ٤٢- ٤٣ .

بواعث التفلسف

البحث في المسائل الفلسفية تابع من طبيعة العقل الإنساني ، فهو يرغب في الكشف عن المجهول ، والوقوف على حقائق الأمور ، وهو يفعل ذلك مدفوعاً بجملة من البواعث ومن أهمها ما يلي :-

١ - الدهشة :-

تعد الدهشة أول باعث على التفلسف . فهي تنمى عقل الإنسان فتنقله من التفكير السطحي إلى التفكير المنظم العميق . فالفلسفة تبدأ بالدهشة وهذا ما قاله أفلاطون و أرسطو فالدهشة قادرة على أن تجعلنا نتخيل كل شيء مختلف عما هو عليه . فنرى المألوف كما لو كان غريبا ، والغريب كما لو كان مألوفا [١] .

فالدهشة تدفع إلى التفلسف لا شك في ذلك ، فكثيرة جدا الأشياء التي نراها في هذا العالم ، وفيها المتآلفات والمتناقضات وكلها تلقى في نفس المرء بالعديد من الأسئلة التي تطرق ذهنه وقلبه . ما حال هذه الأمور ؟ ومن أين جاءت ؟ وإلى أين تتجه ؟ وما مصيرها ؟ ...

إن هذه الأسئلة وغيرها التي تلح على عقل الإنسان ولديه دهشته فيحاول أن يجد لها جوابا ، أو يقدم لها حلا لا سيما إن لم يكن لها إجابة محدودة ومعلومة . فالدهشة هي تساؤل دائم .

" وهكذا نرى أن الحياة الواعية للإنسان تبدأ بالدهشة التي تعنى اليقظة ، واليقظة تعتبر أهم مميزات الإنسان المفكر بوجه عام سواء كان هذا الإنسان فيلسوفا أو فناناً أو عالما . وقد لعبت الدهشة ولا تزال دوراً كبيراً في مجال الاكتشافات العلمية " [٢] .

فالدهشة عماد الفلسفة ، كما أنها عماد العلم والفن على السواء ؛ إلا أن دهشة الفيلسوف تختلف عن دهشة العالم والفنان . فدهشة الفنان أو العالم تبدأ أمام ظاهرة معينة أو موقف خاص .

---

(١) انظر : ما هي الفلسفة . د / حسين على صـ ٢٦ . دار قباء للطباعة والنشر ـ ٢٠٠٤ م

(٢) تمهيد للفلسفة . د / محمود زقزوق . صـ ٢٠ ـ دار المعارف . ط٤ ١٩٩٢م .

بخلاف الفيلسوف فإن منطقة أعم وأشمل . فالموضوع الذي يدهش الفيلسوف ليس هذا المنظر أو ذاك بل الحياة نفسها والوجود كله " (١)

وقصارى القول : أن في الدهشة يحار الفكر مع نفسه وهذه الحيرة دافع لا بدمنه ليكون المرء فكراً على الإطلاق ، كما أنه الدافع لاستيقاظ الفكر . فيبحث ويفتش ليصل إلى الحقيقة لهذا كانت الدهشة هي أصل الفلسفة حيث إنها " ليست مجرد بداية أو تمهيد سابق على فعل التفلسف ، بحيث يمكن أن تزول بعد فترة قصيرة أو طويلة . وإنما هي مبدأ التفلسف وجوهره الثابت وقوته المحركة ، ولو زالت عنه لتوقف التفلسف نفسه .

والإنسان المندهش لا يعرف السبب الخفي وراء ما يدهشه ، لأن الذي يعرف لا يندهش " (٢) .

لهذا كانت الدهشة أولى بواعث التفلسف .

٢ – الشك :–

يعد الشك أحد دوافع الإنسان للتفلسف لأن الموقف الفلسفي موقف شك وحيرة " فالمرء عندما يحصل على المعرفة فإن دهشته تهدأ وتعجبه يزول . ولكنه عندما يتجه لفحص معارفه التي حصل عليها فحصا نقديا . يبدو له أن المعارف الحسية تخدع ، وأن العقل البشري يتعسر في متناقضات ، وأن ما حصل عليه من معارف عن طريق التقليد ليس له أساس مكين " (٣).

فالحواس كثيراً ما تخدع صاحبها ولا يصح جعلها مصدراً وحيداً للمعرفة أو قصر المعرفة عليها .

لهذا نجد الإمام الغزالي يتحدث عن خداع الحواس للإنسان فيقول :

---

(١) مقدمة في الفلسفة العامة . د / يحيى هويدي صـ ٣٧ . دار الثقافة للطباعة والنشر . ط٩ . ١٩٧٩
(٢) ما هي الفلسفة . د / حسين علي صـ ٢٩.
(٣) تمهيد للفلسفة . د / محمود زقزوق صـ ٢٠ .

فانتهى بي طول التشكيك إلى أن لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات ومن أين الثقة بها ؟ وأقوى الحواس حاسة البصر ، وهى تنظر إلى الظل فتراه واقفا غير متحرك وتحكم بنفي الحركة ثم بالتجربة والمشاهدة بعد ساعة تعرف أنه متحرك وإن لم يكن دفعة واحدة [1].

ويقول " ديكارت " :

إن كل ما تلقيته حتى اليوم وآمنت بأنه أصدق الأشياء وأوثقها قد اكتسبته من الحواس ، أو عن طريق الحواس غير أنى جربت الحواس في بعض الأحيان فوجدت أنها خداعه ، ومن الحكمة عدم الاطمئنان لمن خدعنا ولو مرة واحدة [2].

فـ " ديكارت " هنا يؤكد على أهمية الشك وأن الحكيم هو الذي يضع الأشياء جميعا موضع الشك بقدر ما في الإمكان لكون الشك هو البداية الصحيحة للوقوف على حقائق الأشياء على ما هي عليه .

فالشك جزء من عملية التفكير ودور من أدوارها . فهو الذي يدفع إلى التفكير والبحث ، وبدونه تسود الحياة العقلية الركود ، ويستولي عليها الجمود ، بل إن المتأمل لتاريخ الحركة الفكرية عبر عصورها المختلفة يستطيع أن يدرك أن البحوث العلمية لا يطرأ عليها أي تعديل . إذا لم يدخل عليها الشك فإذا ما دخل عليها تغيرت الأحوال فتظهر الأبحاث العلمية والفلسفية والأخلاقية ، والاجتماعية ، وهكذا يتضح لنا أن الشك يعد طريقا مشروعا للفلسفة ودافعا قويا للتفلسف . بل إن المنهج الفلسفي الأصيل لابد وأن يكون الشك أحد بواعثه .

وقصارى القول في هذا : أن الشك أحد دوافع التفلسف التي تدفع الفيلسوف إلى البحث لاستكشاف الحقائق . إلا أنه لابد من الانتباه إلى أمر مهم .

---

(١) انظر : ميزان العمل . للغزالي . تحقيق . د/ سليمان دنيا . صـ ١٤- ١٥ ط دار المعارف . ١٩٦٤

(٢) انظر : التأملات في الفلسفة الأولى – لديكارت . ترجمة د/ عثمان أمين . صـ ٧٢- ٧٣ . مكتبة الأنجلو المصرية . ط٤ ١٩٦٩م .

أن الشك ليس مقصوداً لذاته بل لما وراءه أعني أنه وسيلة إلى التحقق من صحة الموضوع فإذا ثبت صحته عاد إليه الفيلسوف بأدلة الصواب والاقتناع ، وإلا بحث عما يصححه أو عما يطمئن إلى صوابه لأن الحق هو الغاية التي يسعى إليها الفيلسوف .

٣- إحساس الإنسان بالضياع أو رؤية الإنسان لنفسه :-

هذا هو الدافع الثالث من دوافع التفلسف فالمرء تدفعه الدهشة إلى محاولة البحث عن حقائق الوجود واستكشاف أصل الأشياء ، كما يدفعه الشك إلى البحث عن أساس لليقين .

" وهو بهذا يكون مشغولاً أو مستغرقا بالأشياء الخارجة عن ذاته ، لاهيا عن نفسه ، ولكن عندما يلتفت إلى ذاته ويجدها محفوفة بالمخاطر أي مهددة بكوارث كالخوف والألم واليأس والفشل والموت .. الخ ، وعى تلك المواقف التعسة ، يتغير موقفه وتنشأ عنده فلسفة من هذا المنبع تدور حول وجوده ، ما هو ؟ ما معناه ؟ ما أفعاله ؟ ومدى حريته بازاء تلك المواقف ؟ ما طريق خلاصة وسعادته ؟ وما مصيره ؟ " [1].

ومعنى هذا أن التفلسف يبدأ بالدهشة ثم بالشك ليصل بعد ذلك إلى أعمق أصل للفلسفة حيث يتحول التفلسف من النظرة إلى خارج الذات إلى النظرة إلى ذات الإنسان نفسه الذي هو أساس الفلسفة كلها وفى هذا المعنى يقول (ابيكتيت الرواقى – ٥٠- ١٣٨) أن أصل الفلسفة هو ملاحظة ضعفنا وهكذا يتضح لنا أن التفلسف يكمن في الدهشة والشك وشعور المرء بالضياع . وفى كل حالة من هذه الحالات نجد أن التفلسف يبدأ باضطراب شامل يستولى على الإنسان ويدفعه إلى البحث عن هدف معين يخرجه من هذه الحيرة .

وقد دفعت الدهشة كلا من " أفلاطون " و " أرسطو " إلى البحث عن ماهية الوجود ، ودفع الشك " الغزالي" و " ديكارت "

---

(١) مدخل إلى الفلسفة . د / أحمد رمضان صـ ٤١ .

إلـى البحـث عـن اليقيـن الثابـت الـذي لا ريـب فـيه ، كمـا بحـث " الرواقيون " في الآم الوجود عن راحة النفس وسلامها [١].

٤- التواصل والمشاركة :-

من بين الدوافع التي تدفع إلى التفلسف المشاركة والتواصل وبدونه يتعذر التفلسف . فالإنسان كائن اجتماعي لا يستطيع أن يعيش وحيداً بمعزل عن الناس فلا وجود له إلا مع غيره فهو بمفرده لا شيء .

فالمشاركة هي " جوهر الإيمان الفلسفي وذلك ؛ لأن البحث عن الحقيقة يضطرنا إلى الخروج من قوقعتنا الفكرية . من أجل التفتح للآخرين والتلاقي معهم والاستجابة لهم . والفيلسوف الحق هو ذلك الذي يعلم أنه في خدمة الحقيقة فيقنع بأن يكون مجرد شاهد لها ، بد لا من أن يحاول تملكها واغتصابها . وشهادة الفيلسوف هي تقرير لنوع العلاقة التي تربطه بالوجود ، فهي التزام فكرى يتعهد فيه الفيلسوف بالوفاء لخبرته الروحية الخالصة أو يأخذ على عاتقة فيه أن يكون مخلصاً لتلك الحقيقية التي يحملها في باطنه " [٢].

وقصارى القول في هذا : أن أصل الفلسفة قائم في ملكة الاندهاش وفى الشك وفى تجربة الملابسات النهائية ولكن هذا ينطوي في نهاية الأمر في إرادة التواصل الحقيقي بين الناس [٣].

هذه هي أهم الدوافع التي تدفع إلى التفلسف وعن طريقها يفتش المرء عن حقائق الكون وأسرار الوجود .

---

(١) انظر : تمهيد للفلسفة . د / محمود حمدي زقزوق صـ ٢٥ـ ٢٦.

(٢) مشكلة الفلسفة . د/ زكريا إبراهيم صـ ١٠ نشر مكتبة مصر

(٣) انظر : تمهيد للفلسفة . د / محمود زقزوق صـ ٢٣ . ط دار المعارف ط٤ ١٩٩٢م

وظيفة الفلسفة

في الحقيقة أن هناك مهاماً أساسية تقوم بها الفلسفة من هذه المهام :-

١ - أن الفلسفة تقوم بالوظيفة التحليلية .
٢ - أن الفلسفة تقوم بالوظيفة التركيبية .
٣ - أن الفلسفة تقوم بعملية الاختبار والنقد .
٤ - وضع الفرض العلمي .

ونوضح المقصود بكل هذه الوظائف فيما يلي :

أولاً : الوظيفة التحليلية :

إن الفلسفة تهتم في هذا الجانب التحليلي ، بتحليل الأفكار وذلك في مجالات ثلاثة مختلفة :

١ - التحليل الفلسفي في الحياة اليومية :

يستخدم الناس التصورات والأفكار في حياتهم اليومية دون تحديدها أو الوقوف على معناها الدقيق كالزمان والمكان ظنا منهم أنها واضحة بذاتها دون احتياج لتحليل أو تفسير ، وهنا تتدخل الفلسفة وتقوم بتحليل هذه الأفكار وتلك التصورات من الزمان والمكان وتبين معناها الدقيق .

فمثلاً تعريف الزمان هو : عبارة عما به تقدير الحركات .

تعريف المكان هو عبارة عن السطح الباطن من الجرم الحاوي المماس للسطح الظاهر .

٢ - التحليل الفلسفي في المجال العلمي :

كثيرا ما يحدث في ميدان العلوم الجزئية التسليم بمبادئ على أنها وقائع نهائية دون أن تقوم هذه العلوم بالبرهنة أو الاستدلال على صدق هذه المسلمات وذلك مثل النظريات الهندسية وفكرة العدد

والمكان والزمان والسببية والمادة وغيرها مما تستطيع الفلسفة أن تقوم بتحليله وتحديد معناه الدقيق ، وأصحاب هذه العلوم إن قاموا هم أنفسهم بتحليل مسلماتهم ونظرياتهم وتوضيح المعنى الدقيق لكل منها فهم فلاسفة بجانب كونهم علماء وذلك مثل " نيوتن " الذي كان فليسوفاً في تحديده لمعنى " الكتلة " و " أينشتاين " الذي كان فليسوفاً في تحديده لمعنى الزمان ، و " رسل " الذي كان فليسوفاً في محاولاته تحديد معنى العدد أما إنهم استخدموا هذه المسلمات دون محاولة تحديد معناها لعدم شعورهم بالحاجة إلى ذلك أو لأنهم نقلوها عن غيرهم أو من الخبرة اليومية فصار واضحة لديهم في شكلها الظاهر فإن الفلسفة تتدخل هنا ولا تسلم بهذه القضايا دون توضيحها وتحديدها .

٣- التحليل الفلسفي في ميدان المناهج :-

كذلك تهتم الفلسفة في هذا المجال بتحليل الوسائل التي يستخدمها الناس لاكتساب المعارف والتجارب فتدرس قوانين المنطق للوصول إلى الحقيقة والمعرفة لاسيما المنهج الاستقرائي التجريبي والمنهج الاستنباطي الرياضي ، والمنهج النقدي التاريخي ، وكلها مفاهيم ترتبط بالفلسفة الخاصة بهذه العلوم وتسمى بفلسفة العلم .

ثانياً : الوظيفة التركيبية :

والمراد بالوظيفة التركيبية : قيام الفلسفة بمحاولة إيجاد مركب لكل المعارف والتجارب الإنسانية الكلية خلافاً لما تقوم به العلوم الجزئية من العكوف على دراسة شريحة معينة من الكون ، والفلسفة التركيبة تهدف إلى تقديم صورة شاملة كاملة للكون .

وهذه الصورة الشاملة الكاملة مهمة جداً ؛ لأن التحليل الدقيق الذي تقوم به العلوم الجزئية للشرائح الكونية مثل علم الحياة وعلم وظائف الأعضاء وعلم النفس وسائر العلوم ، لا يمكن أن توضح لنا

حقيقة الإنسان إلا إذا قامت الفلسفة بإعادة تركيب الصورة كما كانت للإنسان أو الكون لا من نتائج هذه العلوم وحدها ، بل مما تضيفه إليها أيضا من سائر الخبرات البشرية ، كالخبرة الدينية والجمالية ، والأخلاقية وغير ذلك من الخبرات ، وهذه هي وظيفة الفلسفة التركيبية [١].

ثالثاً : عملية الاختبار والنقد :

تقع على عاتق الفيلسوف في سعيه نحو المعرفة : مهمة اختبار وسائلنا المعرفية حسية كانت أم عقلية ، اختبار من شأنه أن يبين ما إذا كانت قادرة على الوصول إلى معارف حقيقية أم لا ، وإلى أي مدى تصل قدرتها المعرفية ، ومدى حدود المعرفة الإنسانية بصفة عامة ، ويقوم الفيلسوف أيضا باختبار المناهج العقلية في شتى المجالات وتقويمها ، وهذا الاختبار لوسائلنا المعرفية وللمناهج العقلية المختلفة هو في الوقت نفسه نقد لهذه الوسائل والمناهج ، يقصد منه الوقوف على مدى كفايتها أو صلاحيتها ، ولا يقتصر هذا الاختبار والنقد على المجال النظري فقط ، بل يشمل المجال العملي وذلك ببحث الأسس والمعايير التي تحدد سلوك الإنسان [٢].

هذا ويشمل تحقيق هذه المهمة كل فروع الفلسفة المختلفة ، وعلى الفيلسوف ألا يكون اهتمامه منصبا على بعض الفروع دون البعض بل يجب عليه الاشتغال بالكل ليستطيع الحصول على نظرة كلية لمهام العالم ولمكان الإنسان من هذا العالم [٣].

---

(١) انظر : هذه الوظائف في : مدخل إلى الفلسفة أ. د / إمام عبد الفتاح إمام صـ ٥٨ـ ٦٦ دار الثقافة للطباعة والنشر . طـ ٤ ١٩٧٧م ، مع الفلسفة العامة في بعض مشكلاتها . د . جمال عفيفي . صـ ٨٤ ـ٨٧ ، في الفلسفة أعلامها ومعالمها . د. عبد المقصود عبد الغني ، عبد الفتاح الفاوى صـ ٣٧ ـ ٣٨ .

(٢) انظر : تمهيد للفلسفة د. زقزوق صـ ٢٤ ، الفلسفة أنواعها ومكانتها ـ هنترميد ـ ترجمه د/ فؤاد زكريا صـ ١٩ ـ ٢٠ ـ مكتبة مصر .

(٣) انظر : تمهيد للفلسفة أ. د / محمود حمدي زقزوق صـ ٢٤ .

كذلك تميز الفلسفة بأنها تضع كل شيء موضع التساؤل ويبدأ بالسؤال عن الحقيقة ما هي ؟ فمثلاً يكون السؤال في مجال المعرفة عما إذا كانت الانطباعات التي تأتى لنا عن طريق الحواس وعن طريق عمل العقول تقود إلى معارف حقيقية أم لا ؟ .

ويأتي الدور الثاني في الأسئلة ، فيسأل الفيلسوف عن ماهية كل الأشياء وحقيقتها ، وهنا يكون السؤال عن المادة وعن ماهية العلة الأولى أو الله ويسأل عن ماهية الدين .

ثم يأتي الدور الأخير ويسأل الفيلسوف فيه عن المعنى ، وهنا يكون السؤال عن معنى العالم ومعنى حياتنا ومعنى التاريخ ، إلى آخر هذه الأسئلة [1].

وإذا كانت الفلسفة تضع كل شيء موضع التساؤل ، فإنها لا تقف عند هذا الحد وإنما تبحث أيضاً عن هذا الحد وتبحث أيضاً عن إجابات لكل التساؤلات التي تطرحها وذلك بالبحث عن المعارف الحقيقية اليقينية التي لا تقبل الشك وهذه هي إحدى وظائف الفلسفة .

رابعاً : وضع الفرض العلمي :

الفرض العلمي من وضع الفلسفة وهو ضروري لتقدم العلم ، فهو يقوم بدور مهم في تطوير أي علم ، ولاسيما في مراحله الأولى ، فهناك مفاهيم وضعها الفلاسفة وأشاروا إلى أهميتها لفهم العلم وتطويره ومن بين هذه المفاهيم فكرة الجوهر والعرض التي احتلت مكانا واسعاً عبر العصور المختلفة .

يقول أحد الباحثين : " وعلى هذا فإن أهم موضوع للفلسفة هو وضع إطار أو طائفة من المفاهيم التي لا يمكن بها أن تفسر خبرتنا في سائر المجالات ، وربما أمتد سلطان الفلسفة إلى مراجعة المفاهيم

---

(١) انظر : نفس المرجع صـ ٢٥- ٢٦ .

العلمية نفسها وربط شتاتها في سائر العلوم الجزئية مادامت تتسم بنظرة شمولية ، لأن الناس يميلون دائما إلى التعرف على نظام ما يجمع بين الكائنات البشرية والأشياء الأخرى في الكون " [١].

وهناك بعض المفاهيم الرياضية قام بوضعها جملة من الفلاسفة وساعدت على التمهيد لعمل بعد ذلك لظهور نظريات وقوانين عمليه .

كل هذا يؤكد أن للفلسفة وظائف عدة وكلها تساعد على خلق مجتمع فاضل وبيئة صالحة .

وقصارى القول أنه : من " الثابت تاريخيا أن حصاداً كبيراً من الأقطار التي أسهمت في هذا التقدم العلمي قد جنى من بين كثير من المناقشات الفلسفية الغثة ؛ وهذه الحقيقة تفيد في ضمان تسامح العلماء إزاء تلك الطاحونة التأملية التي لا يكف الفلاسفة عن إدارتها " [٢].

---

(١) الفلسفة و مباحثها . د محمد أبو ريان صـ ٦٧ دار المعارف ط ٤ .

(٢) الفلسفة . أنواعها ومشكلاتها . هنترميد صـ ٥١.

غاية الفلسفة

لقد تأرجحت غاية الفلسفة منذ القدم وحتى العصر الحديث بين اتجاهات عديدة يمكن الإشارة إلى أهمها فيما يلي :

أولا : تحقيق السعادة :

برزت هذه الغاية العملية ، عندما ضاق الكثيرون من أهل الفلسفة والمؤرخين لها بالغاية الأولى القاصرة على مجرد اللذة العقلية فاجتهدوا في إثبات صلة الفلسفة بالحياة وكشف الغموض . وقد نادى هؤلاء الفلاسفة بأن الفلسفة ليست مجرد تأمل واعتزال الحياة ، وإنما هي دراسة دقيقة للوجود والإنسان .

ولقد قامت هذه الغاية الجديدة على أكتاف المدرستين : الرواقية، والأبيقورية ، حيث انصرفتا عن الدراسة النظرية بعد موت أرسطو واتجه فلاسفة المدرستين إلى الحياة العملية ممثلة في علم الأخلاق رافضين الفلسفة النظرية في بحثها عن الحقيقة لذاتها .

وقد رأت الأبيقورية أن الأخلاق أساس السعادة ، وأن السعادة تتحقق باللذة الجسمية وأن اللذة وحدها هي غاية الإنسان كما أن وحدها الخير ، وأن الألم وحده هو الشر الذي يفر منه الإنسان وقد شرح أبيقور فكرة اللذة بدقة ومهارة حتى أحالها إلى نوع من السعادة الروحية واستبقى الفضائل المعروفة واستبعد الرذائل مما جعل لمذهبه مكانا خاصا بين المذاهب الأخلاقية [1].

كذلك رأت المدرسة الرواقية أن الفلسفة هي فن الفضيلة ، ولذا فقد اهتموا بدراسة الأخلاق ، ولكن دراستهم كانت على العكس من دراسة الأبيقوريين في نظرتهم إلى اللذة ، لأنهم يرون أن اللذة عرض

---

(١) انظر : الفلسفة اليونانية في سلسلة الفكر أ . د / عبد الستار نصار صـ ٢١٧، ٢١٨ ط مطبعة الشيماء – المنصورة

ينشأ حين ينزل بالإنسان ما يعارض طبيعته وتنقلب اللذة شرا وألما ... وعلى ذلك فإن الذي يجب أن يراعى هو مطابقة الإرادة الإنسانية للإرادة الكلية ، وفى هذه المطابقة وحدها الحكمة والخير والفضيلة والسعادة [1].

فالفلسفة عند المدرسة الرواقية تعنى الفضيلة ممثلة في التقشف والزهد والحرمان في ملذات الدنيا حتى يستطيع أن يحقق لنفسه السعادة .

الأمر الذي أثر في فلاسفة الإسلام ، فالفارابي مثلا يجعل السعادة الدنيوية ليست غاية في حد ذاتها ، ولكنها معبرة إلى السعادة الحقيقية الدائمة بعد الموت إذ يقول : وحصول المعقولات إنما جعلت له ليستعملها في أن يصير إلى استكماله الأخير وذلك هو السعادة [2].

وكذلك ابن سينا كان يرى أن السعادة الإنسانية لا تتم إلا بإصلاح الجزء العملي من النفس [3].

ثانيا : الدفاع عن العقيدة الدينية :

أيضا من الغايات الرئيسية التي تقصدها الفلسفة ، الدفاع عن العقيدة الدينية بشتى الطرق ، وهذا الأمر كان متمثلا في فلاسفة الإسلام فالكندي مثلا وهو من أوائل فلاسفة الإسلام كانت فلسفته الإلهية أوسع مجالا من غيرها ذلك أنه جاهد في ألا يكون هناك تصادم بين الفكر والعقيدة ، كذلك كانت الغاية من الفلسفة الدفاع عن العقيدة الدينية في العصور الوسطى ، حيث أخضع القديس (أنسلم ١٠٣٣ – ١١٠٩) العقل للعقيدة بفرضه الإيمان شرطا ضروريا للعقل وصحة تفكيره .

---

(١) انظر : المرجع السابق صـ ٢٢٨.

(٢) انظر : المدينة الفاضلة . للفارابي صـ ٦٠ نقلا عن المرجع السابق صـ ٧٣

(٣) انظر : النجاة . لابن سينا صـ ٢٩٦ ط ٢ ١٩٣٨م.

ثالثا : خدمة الحياة العملية :

من الملاحظ أن هذه الغاية من الفلسفة ، غاية مادية جاء بها فلاسفة العصر الحديث اخذوا يحررون العقل من قيوده العلمية ، والدينية رافضين ما ذهب إليه فلاسفة اليونان من دراسة العلم لذاته ، وكذلك رافضين النزعة الدينية التي كانت تدعو إلى إخضاع الفلسفة للدين ، رابطين التفكير النظري بالحياة العملية .

يقول " ديكارت ": لقد أصبح فضل التفلسف ليس فقط في سمو نظرته وشرف مرتبته ، بل في منفعته العملية الجليلة ، لأن الإنسان يفتقر إلى التفلسف ليهذب بها أخلاقه ، ويسترشد به في حياته ، ويهتدي به إلى الخير الأسمى [١].

ويعلق الدكتور " توفيق الطويل " على هذه الغاية فيقول : لقد أنصفت المذاهب الحديثة : كالتجريبيين والعقليين والوضعيين وأصحاب مذهب التطور وغيرهم حين ربطوا بين النظر والعمل ، وسخروا العقل لخدمة الحياة الدنيا ، فما لغير هذا ينبغي أن يكون اليوم تفكير .

ولقد أصبح من الضلال أن يقاوم الفيلسوف روح عصره ويعتكف في برجه العاجي ويوقف حياته عل التأمل المجرد لذاته [٢].

---

(١) انظر : ديكارت د/ عثمان أمين صـ ٢٤٤ ط مكتبة الأنجلو المصرية ط ١٩٦٩ .

(٢) انظر : أسس الفلسفة د/ توفيق الطويل صـ ١٢٧- ١٣٠ .

أهداف الفلسفة

إن مما لا شك فيه أن لكل علم أهدافاً ، وأهداف الفلسفة كثيرة منها عقلية ومنها ما هي خلقية ومنها ما هي اجتماعية ومنها ما هي روحية ، ونحاول في السطور التالي توضح أهم هذه الأهداف .

أولا : الأهداف العقلية :-

إن للفلسفة أهدافاً عقلية وذلك كالارتقاء بالفكر البشرى عن الأساطير الخرافية وذلك كإشباع الرغبة الفكرية التي تميل دائما إلى معرفة الحقائق العلمية ، وتنمية العقل على أسس علمية ومنهجية ، وتفضيل المنهج العلمي في التفكير وفى العمل وفى كل أمور الحياة .

كذلك من أهداف الفلسفة العقلية استخلاص النتائج من مقدمتها المنطقية ونقدها إن لزم ذلك وتحصيل المهارات العقلية والميل إلى التسامح الفكري وعدم التعصب .

ثانيا : أهداف أخلاقية :-

إن الفلسفة كما ذكرنا أثناء الحديث عن غاياتها تهذب المرء وتجعله دائما يسير في طريق السعادة وذلك بتمسكه بالفضائل ومكارم الأخلاق وأن يرغب في الخير وأن ينفر من الشر .

وجملة القول أن الفلسفة تجعل صاحبها يقدس القيم العليا والمثل الرفيعة والمبادئ العالية وتحثه على إنكار الذات والتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان .

ثالثا : أهداف نبيلة :-

أيضاً من أهداف الفلسفة الأهداف النبيلة كأن يحارب الإنسان الاستغلال وأن يكافح العنصرية وأن ينشر المحبة والصداقة

والإخلاص بين سائر الناس كل هذه صفات نبيلة يتمتع بها كل فيلسوف أو ينبغي أن يتمتع بها كل فيلسوف أن صح هذا التعبير .

رابعاً : أهداف اجتماعية :-

وذلك كأن يحترم الإنسان العقل باعتباره قيمة غايتها النهوض بالمجتمع وتطويره وتسخير الفكر كآله تعمل لصالح البشر والمواجهة الإيجابية للمشكلات ، والولاء للجماعة واحترام كل من يبذل جهدا مساهمة في بناء المجتمعات.

خامساً : أهداف روحية :-

وفى مقدمة هذه الأهداف الإيمان بالقيم الروحية ، والعمل على نشرها لمواجهة التطرف المادي وكذلك في مقدمة الأهداف الروحية ، التوازن الإيجابي بين الروح والجسد ، وغرس الإيمان بالله عز وجل في القلوب وإزكاء المشاعر الدينية وإثبات وجود الله عز وجل بأدلة عقلية ونقلية ، والاحتكام إلى العقل في العواطف والانفعالات ومقاومة المشاكل النفسية والانحرافات السلوكية [١].

وفى الحقيقة أن هذه الغايات وتلك الأهداف الغالية لها مصدر أساس ترجع إليه ألا وهو القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة والسؤال الذي يطرح نفسه هو : هل هناك علاقة بين الفلسفة وبين العلم ؟ وبينها وبين الدين ؟ هذا هو ما نتعرف عليه فيما بعد .

(١) انظر : هذه الأهداف في المراجع التالية : أضواء على الفلسفة العامة أ. د / عبد اللطيف العبد صـ ٣١ وما بعدها ، وأسس الفلسفة د/ توفيق الطويل صـ ١٢٩- ١٣٠ وما بعدها ، وأضواء على الفكر الفلسفي د. عبد المقصود عبد الغني صـ ٤١ وما بعدها ، والوجيز في الدرس الفلسفي د/ منشاوي عبد الرحيم صـ ٥٢ وما بعدها ، الفلسفة بين المشرق والمغرب د. سعيد الهواري صـ ٣٠- ٣١ .



الفصل الثاني

مفهوم الفلسفة ومجالاتها

تعريف كلمة فلسفة

في الاشتقاق اللغوي :-

كلمة فلسفة ليست عربية الأصل ولكنها كلمة معربة عن كلمتين يونانيتين أحدهما " فيلو " ومعناها محبة ، والثانية " سوفيا " ومعناها الحكمة فتكون الفلسفة بمعنى محبة الحكمة .

والحكمة في ذاتها أرقى أنواع المعرفة وكان قدماء العلماء والمصلحين يسمون أنفسهم أو يسميهم الناس حكماء ، حتى جاء " فيثاغورث " فرأى أن الحكمة بمعناها التام لا تضاف للإنسان فالواحد منا يعاني المشقة في تحصيلها فكيف يسمى حكيماً لهذا نسب إليه قوله : لست حكيماً ، فإن الحكمة لا تضاف إلا إلى الآلهة ، وما أنا إلا فيلسوف ، أي محب للحكمة ، وقوله : لا حكيم إلا الإله وحده والإنسان فيلسوف فحسب[1] .

وقصارى القول : إن الفلسفة في الاشتقاق اللغوي تعني محبة الحكمة والحكمة قديماً كانت تطلق على جميع المعارف من طب وفلك وطبيعة ورياضة وأخلاق .

لكن لفظ فلسفة وإن كان أصله يونانياً إلا أنه له نظير لدى كثير من الأمم والشعوب التي لا تنسب إلى اليونان فعلى سبيل المثال نجد في المحيط الإسلامي كلمة حكمة تؤدي المعنى الأعم والأشمل التي تؤديه كلمة فلسفة حتى قبل نقل هذه الكلمة إلى المحيط الإسلامي .

---

(١) انظر: دروس في تاريخ الفلسفة د. إبراهيم مدكور أ. يوسف كرم (المقدمة) مطابع مدكور وأولاده بمصر ١٩٥٤ ، انظر : أسس الفلسفة د. توفيق الطويل صـ ٥٤ دار النهضة العربية ط٧ – ١٩٧٩م .

قال تعالى :

﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾[١].

فقال المفسرون في معناها : بأنها النبوة وفسرها ابن عباس بالقرآن وعن مجاهد أنها الإصابة في القول ، وسئل مالك عن الحكمة فقال المعرفة بالدين والفقه والإتباع [٢].

ولعل أقرب التفاسير للحكمة ما قيل في تعريفها بأنها المعرفة بالدين والفقه فيه والإتباع لأوامره ، لأن هذه الركائز هي التي تمكن الإنسان من الوصول إلى معرفة الله تعالى وتجعله ينشد الفضيلة . ومعنى هذا أن الحكمة تتكون من عنصري العلم والعمل وهذا ما عليه معظم علماء اللغة فالحكمة في اللغة اسم للعلم المتقن والعمل به [٣].

ويؤيد ذلك ما ذكره " ديكارت " عندما أراد أن يميز بين الحكمة بالمعنى الشائع وبالمعنى الذي يقصده فقال :" لا يقصد بالحكمة التحوط في تدبير الأمور فحسب بل يقصد منها معرفة كاملة لكل ما يستطيع الإنسان أن يعرفه ، إما لتدبير حياته ، أو لحفظ صحته أو لاستكشاف الفنون جميعاً " [٤].

تعريف الفلسفة :

يصح القول : بأن كلمة فلسفة من الكلمات التي يصعب على الباحث في الفلسفة أن يضع لها تعريفاً محدداً يحدد معناها ويوضح المقصود منها ، بحيث يكون تعريفها جامعاً مانعاً .

---

(١) سورة البقرة الآية رقم (٢٦٩) .
(٢) انظر : تفسير ابن كثير جـ١ صـ٤٨٠ – ٤٨١ . دار الفكر ط٢ . ١٤٠٨هـ . ١٩٨٨م .
(٣) انظر: التعريفات للجرجاني صـ ١٢٤ ط دار الريان للتراث .
(٤) المعجم الفلسفي . د. مراد واهبة صـ ١٧٨ ط٣ . نشر دار الثقافة الجديدة ١٩٧٩ م .

وربما كان هذا هو السبب في وجود طائفة من الباحثين يفضلون عدم تقديم تعريفاً معيناً لها لأن القضية هنا ليست قضية فلسفية بذاتها ، أو فيلسوف بعينه بل قضية التراث الفلسفي برمته [١] .

ولا شك أن هذا فيه شيء من الغرابة لأنه يتناقض مع أولى مهام الفلسفة وهي التحديد والتعريف ، ومع هذا فقد ذهب بعض المفكرين إلى أن صعوبة تعريف الفلسفة ترجع إلى :

(١) أن تعريفات الفلسفة تؤخذ في الغالب من الموضوع الذي يتناوله العلم الفلسفي وعلم الفلسفة يأخذ تعريفه من مباحث لا تقف عند حد معين بحيث يكون هذا التعريف منطقياً على الموضوع الذي يدرس في كل عصورها إذ أن لكل عصر طابعه الخاص وموضوعاته التي يدرسها [٢].

فعلى سبيل المثال كان البحث الفلسفي في مراحله الأولى كان موجهاً إلى العالم الخارجي وما أصله وما مصيره ثم تحول الأمر بعد ذلك إلى موضوعات أخرى ونظريات مختلفة باختلاف العصور والمراحل بمعنى أخر كان التعريف السائد في العصر اليوناني أو العصر الوسيط على خلاف ما هو في العصور الحديثة والمعاصرة .

" لقد كانت الفلسفة في فترة من فترات تاريخها هي إمكان الوصول إلى معرفة يقينية وكانت أيضاً البحث عن اللذة العقلية بغض النظر عن أي جانب عملي ، ولكنها كانت في فترة أخرى المدبرة لحياة الإنسان العملية" [٣] .

---

(١) انظر: دراسات فلسفية وأخلاقية . د. محمد كمال جعفر صـ ٩ – ١٠ ، انظر: مدخل إلى الفلسفة د. أحمد السيد رمضان صـ ٧٩ ط الدار الإسلامية للطباعة والنشر .
(٢) محاضرات في الفلسفة العامة . د. أحمد عبد الوهاب صـ ٥٣ .
(٣) مدخل إلى الفلسفة . د. أحمد رمضان صـ ٨٠ – ٨١ .

فها هو " شيشرون" يخاطب الفلسفة بقوله : " أيتها الفلسفة أنت المدبرة لحياتنا . أنت صديق الفضيلة وعدو الرذيلة ، ماذا نكون وماذا تكون حياة الإنسان لولاك " [1].

وعلى هذا فتقديم تعريف وافٍ أمر غاية في الصعوبة حيث إن الفلسفة " كباقي المآثر الإنسانية العظمى في المجتمع المثالي - وهي الفن والعلم والدين – لا يعدو أن يكون كل حد (أي تعريف) لها تعبيراً عن مفهوم فردي محدود " [2].

(٢) تباين وجهات نظر المذاهب الفلسفية المختلفة في تعريفها للفلسفة . فالتعريف الذي يقدمه المذهب التجريبي يرفضه المذهب المثالي ، والتعريف الذي يقول به الفيلسوف الهيجلي يرفضه الفيلسوف البرجماتي[3] .

وما يتمسك به الوجودي يرفضه الوضعي وهكذا .

وقصارى القول في هذا : أن الفلسفة هي محاولة إنسانية يقوم بها الفيلسوف أملاً للوقوف على حقائق الأشياء ، واستكشاف الأمور . وليست مصطلحاً للتعريف . ولهذا كان الوقوف على مفهوم خاص به أمر صعب المنال .

أ – تعريف الفلسفة في عصرها القديم .

من المعلوم أن البحث الفلسفي في نشأته الأولى كان موجهاً نحو العالم الخارجي ما أصله وما مصيره ؟ إلى غير ذلك من الأمثلة

---

(١) المدخل إلى الفلسفة. أزفلد كولبه . ترجمة . د/ أبو العلا عفيفي صـ١٠ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٢م .

(٢) مدخل إلى الفلسفة . جون هرمان راندال ، جوستاس بوخلر . ترجمة الدكتور ملحم قربان . صـ ٧ – ٨ . دار العلم للملايين . ١٩٦٣ م .

(٣) انظر : مدخل إلى الفلسفة د. أحمد رمضان صـ ٨٠ .

المتعلقة به لهذا لا نجد غرابة أن نجد تعريف الفلسفة لدى الطبيعيين الأوائل يدور حول هذه المسائل فعرفوا الفلسفة بأنها :

" البحث النظري في العالم وتعليل ظواهر الكون " [١] .

وعندما جاء السوفسطائيون حولوا البحث من النظر في الكون والطبيعة إلى الاهتمام بالإنسان ، وعملوا على التغلب على الخصم من خلال الجدل وقوة المنطق وقاموا بتعليم هذا للناس لذا جاء تعريفهم للفلسفة على النحو التالي بأنها :

" العلم النظري الممارس الذي يقصد منه الغلبة على الخصم بالحق أو بالباطل "[٢] .

ولما جاء سقراط وكانت غايته هو القضاء على الأفكار السوفسطائية التي خربت عقول الشباب ودمرت حياتهم وكادت أن تقضي على المجتمع اليوناني ، وجه بحثه نحو الإنسان وأخلاقه وسلوكه نجد تعريفه للفلسفة جاء على النحو التالي فقد عرفها بأنها :

" البحث عن الحقائق بحثاً نظرياً وعن المبادئ الأخلاقية من خير وعدل وفضيلة " [٣] .

كما عرفها بأنها :

" العلم بمعناه الواسع الشامل فالفلسفة كانت تعني العمل المنهجي للفكر الذي ينبغي أن يؤدي إلى معرفة الوجود " [٤].

ويمضي الزمن ويولد أفلاطون الذي كان تلميذاً لسقراط فيعرفها بأنها كسب أو تحصيل المعرفة أما الفيلسوف فهو الشخص الذي غايته الوصول إلى معرفة الأمور الأزلية ، أو معرفة حقائق الأشياء .

---

(١) انظر : محاضرات في الفلسفة العامة د. أحمد عبد الوهاب صـ ٥٤ .
(٢) نفس المصدر صـ ٥٤ .
(٣) نفس المصدر صـ ٥٤ .
(٤) انظر : المدخل إلى الفلسفة . أزفلد كولبه صـ٩ .

ومعنى هذا أن الفلسفة على يد أفلاطون تدرس موضوعات متعددة فهي تدرس أمور تتعلق بما وراء الطبيعة ، كما أنها تدرس أمور أخرى تتعلق بالأخلاق لتوجيه الإنسان نحو الحق والعدل .

ولما جاء " أرسطو طاليس " استمر في توسيع نطاق الفلسفة حتى صارت تشمل كل المعارف الإنسانية ، بمعنى أدق صارت الفلسفة مرادفة للعلم ولهذا نراه يعرفها بأنها : البحث عن المبادئ الأولى والجواهر الأساسية والعلل الفاعلة للأشياء حتى ينتهي هذا البحث إلى العلة الأولى التي لا علة لها ، وهي علة كل شيء والذي يتجه إليها كل شيء ، وهي لا تتجه إلى شيء [١].

بل إننا لنجد تعريفاً آخر أدق للفلسفة عند " أرسطو " فيما يسميه بالفلسفة الأولى التي هي الفلسفة الحقة عنده وموضوعها ما وراء الطبيعة ، والفلسفة الثانية وهي عالم الطبيعة [٢].

والحق أن تعريف أرسطو للفلسفة فيه شمول واف للفلسفة .

وبعد أرسطو تغير مفهوم الفلسفة ، وظهرت مدرستان هما الأبيقورية والرواقية وفي عصرهما بدأ الفكر اليوناني في الضعف والتقلص والاضمحلال وتحولت النظرة الفلسفية من البحث العام الشامل للوجود كله متمثلاً في – الإلهيات والطبيعيات والإنسان – اقتصر على بعض الجوانب المتعلقة بالإنسان فدارت موضوعاتها حول أخلاق الإنسان وسلوكه وكيفية تحصيله للسعادة لهذا لا غرابه أن نجد تعريفاتهم لها جاءت على النحو التالي :-

فقد عرفت الرواقية الفلسفة بأنها :-

علم الأمور الإلهية والأمور البشرية ، أو أنها علم الأشياء كلها لأن الأشياء الطبيعية مندمجة في الأشياء الإلهية [٣].

---

(١) انظر : الفلسفة الإغريقية د. محمد غلاب جـ٢ صـ ١٥ . ط ١٩٣٨ مكتبة الأنجلو .
(٢) انظر : المدخل إلى الفلسفة . أزفلد كولبه صـ ٩ .
(٣) انظر : الفلسفة الرواقية د. عثمان أمين صـ٨٤ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧١ .

أما المدرسة الأبيقورية فقد عرفت الفلسفة بأنها :-

النشاط العملي الذي يحقق السعادة في الحياة (١) .

وهذا التعريف يتفق مع مذهبهم ؛ لأن الغاية العامة للفلسفة الرواقية ترمي إلى بلوغ السعادة .

تعقيب :

بعد هذه الجولة في تعاريف الفلسفة وموضوعها في العصر القديم فإننا نلاحظ أن هذه التعاريف يغلب عليها انتماء حكمائها إلى اتجاهات فلسفية محددة .

ذلك لأن فلاسفة اليونان قاموا بالبحث في موضوعات الفلسفة بعيداً عن الدين ، واعتمدوا في بحوثهم على العقل الإنساني المجرد الذي يضل عن الحقيقة حيناً ، ويبصرها حيناً وظل هذا حال الفلسفة على هذا النحو حتى جاءت الديانة المسيحية التي جاء بها سيدنا عيسى (عليه السلام) من عند الله تعالى وحياً سماوياً يناجي القلوب والمشاعر .

ب - الفلسفة في عصرها المتوسط (المسيحي) .

يمكن القول أن دور الفلسفة في هذا العصر انحصر في إقامة الأدلة والبراهين على صحة العقيدة وتكوينها والدفاع عنها فقد كانت " مهمة الفلسفة ... أن تؤيد بالدليل العقلي ما سلمت به النفوس بالإيمان تسليماً لا يقبل ريبة ولا شكاً وهكذا أصبحت الفلسفة تابعة للعقيدة ، وأصبح العقل عوناً لها " (٢).

---

(١) انظر : الفلسفة الإغريقية جـ٢ صـ١٩٢ .
(٢) قصة الفلسفة الحديثة زكي نجيب . أحمد أمين صـ ٢ . نشر مكتبة النهضة المصرية .

ولما كان الأمر على هذا النحو عرفت الفلسفة بأنها : مجرد تمهيد لفهم حقائق الدين [١].

جـ - الفلسفة في العصر الإسلامي .

برز كثير من فلاسفة الإسلام وكان طبيعياً أن يدرس هؤلاء الفكر اليوناني بروح الإسلام من جانب ما يتفق مع الدين ومالا يتفق معه ، وطبيعي أن يكون لهؤلاء مفاهيم لتعريف الفلسفة بعد دراستهم لها ومن هؤلاء .

(١) الكندي (١٨٥هـ - ٢٥٢) هـ :

عرفها بقوله : " بأنها علم الأشياء بحقائقها بقدر طاقة الإنسان ". [٢]

(٢) الفارابي (٢٥٧ - ٣٩٩) هـ :

فقد عرفها بأنها " العلم بالموجودات بما هي موجودة " [٣].

وذلك لأن " موضوعات العلوم وموادها لا تخلو من أن تكون : إما إلهية ، وإما طبيعية ، وإما منطقية وإما رياضية أو سياسية وصناعة الفلسفة هي المستنبطة لهذه والمخرجة لها حتى أنه لا يوجد شيء من موجودات العالم إلا وللفلسفة فيه مدخل ، وعليه غرض ، ومنه علم بمقدار الطاقة الإنسانية" [٤] .

---

(١) مسائل فلسفية د. زكي نجيب محمود وآخرون صـ ٧٥ . وزارة التربية والتعليم١٩٧٦ م .
(٢) رسائل الكندي الفلسفية تحقيق . د. أبو ريدة صـ ٩٧ – ٩٨ دار الفكر العربي ١٩٥٠ .
(٣) الجمع بين رأيي الحكمين للفارابي صـ ٨٠ قدم له وعلق عليه . د. ألبير نصري نادر ط دار المشرق ط٤ .
(٤) نفس المصدر صـ ٨٠ – ٨١ .

(٣) ابن سينا :

أما " ابن سينا" فقد عرفها بأنها :

" صناعة نظرية يستفيد منها الإنسان تحصيل ما عليه الوجود كله في نفسه وما الواجب عليه عمله مما ينبغي أن يكتسب فعله لتشرف بذلك نفسه ، وتستكمل وتصير عالما معقولاً مضاهياً للعالم الموجود ، وتستعد للسعادة القصوى في الآخرة ، وذلك بحسب الطاقة الإنسانية " [١].

(٤) أخوان الصفا :

فقد عرفوها بقولهم : الفلسفة أولها محبة وأوسطها معرفة حقائق الموجودات بحسب الطاقة الإنسانية ، وآخرها القول والعمل بما يوافق العلم والعلوم الفلسفية أربعة أنواع :-

الأول : الرياضيات ، **والثاني** : المنطقيات ، **والثالث** : العلوم الطبيعيات ، **والرابع** : العلوم الإلهية . [٢]

والناظر في هذا التعريف يدرك أنه يحدد ثلاثة مراحل للفلسفة الأولى : محبة العلوم ، والثانية : معرفة حقائق الموجودات في حدود الطاقة الإنسانية ، والثالثة : موافقة القول والعمل للعلم .

(٥) الشريف الجرجاني :

عرفها بأنها " التشبه بالإله بحسب الطاقة البشرية لتحصيل السعادة الأبدية ، كما أمر الصادق (ﷺ) في قوله : " تخلقوا بأخلاق

---

(١) المعرفة عند مفكري المسلمين د/ محمد غلاب صـ ٢٣٨ . الدار المصرية للتأليف الترجمة ١٩٦٦ .

(٢) انظر : رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا جـ ١ صـ ٦٦ . دار صادر ببيروت . ١٣٧٦ هـ ١٩٥٧م ، تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية للشيخ مصطفى عبد الرازق صـ٥٤ – ٥٥ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة ١٣٦٣هـ – ١٩٤٤م .

الله ، أي تشبهوا به في الإحاطة بالمعلومات والتجرد عن الجسمانيات " [١].

ويلاحظ على هذا التعريف أنه يتجه بها شعبتين :-

الأولى : التشبه بأخلاق الله على قدر طاقة الإنسان .

الثانية : بلوغ السعادة الأبدية باقتفاء أثر الرسول (ﷺ).

د - الفلسفة في العصر الحديث .

لا ينكر أحد من الباحثين في الفكر الفلسفي أن العصر الحديث أدى إلى تحرير العقل من سلطان رجال الدين ، أو بمعنى آخر من تحرر الفلسفة من سلطان أباء الكنيسة ، كما أن النظرة الفلسفية للكون وما فيه اختلفت عما كانت عليه في العصور القديمة .

فلقد اهتمت الفلسفة قديماً بالبحث في الوجود بما هو موجود ، ونظرت إلى المعرفة من خلاله . على حين أن الفلسفة الحديثة اهتمت بالبحث في المعرفة ونظرت من خلالها إلى الوجود . وفيما يلي عرض لتعريف الفلسفة لدى بعض الفلاسفة المحدثين .

(١) بيكون (١٥٦١ – ١٦٢٦) :

الفلسفة عند بيكون تتناول ثلاثة موضوعات الطبيعة والإنسان والله لهذا جاء تعريفه لها على النحو التالي :

الفلسفة علم وليد القوى العاقلة في الإنسان يقدم لنا تفسيراً للكون والحياة من خلال الملاحظة والتجربة بهدف السيطرة على الطبيعة والتحكم في مواردها لتحقيق الرفاهية والسعادة للإنسان. [٢]

---

(١) التعريفات . للجرجاني صـ ٢١٦ . طبعة دار الريان للتراث .

(٢) انظر : الفلسفة أصولها ومبادئها د. محمد علي أبو ريان صـ ٥٧ دار المعرفة الجامعية ١٩٧٨ .

(٢) توماس هوبز (١٥٨٨ - ١٦٧٩) :

عرف " هوبز " الفلسفة بأنها " فهم النتائج أو ظواهر الطبيعة بالرجوع إلى أسبابها ، أو هي فهم هذه الأسباب نفسها بما نستنبطه من النتائج التي تقع تحت ملاحظاتنا استنباطاً صحيحاً ، وأما الغاية المقصودة منها فهي أن تمكننا من التنبؤ بما سيحدث من نتائج ، وبهذا نستطيع أن نستغلها في حياتنا العلمية " [١]

(٣) ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) :

عرف " ديكارت " الفلسفة بقوله :

" إن كلمة فلسفة تعني دراسة الحكمة ولسنا نقصد بالحكمة مجرد الفطنة في الأعمال ، بل معرفة كاملة بكل ما في وسع الإنسان معرفته بالإضافة إلى تدبير حياته وصيانة صحته واستكشاف الفنون ، ولكي تكون هذه المعرفة كما وصفنا ، فمن الضروري أن تكون مستنبطة من العلل الأولى ". [٢]

(٤) هيجل (١٧٧٠ - ١٨٣١) :

أما هيجل فقد عرفها بقوله : بأنها البحث في المطلق . فهي الحقيقة في تجريدها وإطلاقها [٣].

(هـ) مفهوم الفلسفة في الفلسفات المعاصرة .

(١) الوضعية :

من المعلوم أن الفلسفة الوضعية لم تعترف بغير المحسوس الذي يمكن إخضاعه للتجربة . لهذا جاء تعريفهم للفلسفة بأنها هي

(١) قصة الفلسفة الحديثة زكي نجيب وزميله صـ ٦٢ .
(٢) قصة الفلسفة الحديثة . زكي نجيب وزميله صـ ٦٢ .
(٣) انظر : تاريخ الفلسفة الحديثة صـ ٦٢ - ٦٣ .

التي لا تعني ببيان علاقات العلوم فيما بينها وكذلك بعض الفرضيات الواسعة التي تستفيد منها كل العلوم أو أغلبها ، كما أنها تقوم بتنظيم النتائج التي تتوصل إليها العلوم الجزئية " [١].

(٢) الوضعية المنطقية :

أما أصحاب الوضعية المنطقية فقد ارتضوا الموقف السالف وعرفوا الفلسفة بأنها مجرد منهج للبحث هدفه التحليل المنطقي للغة التي نستخدمها في حياتنا ، أو يستخدمها العلماء في أبحاثهم العلمية لإزالة أي لبس أو غموض يحيط بها [٢].

تعقيب :

بعد هذه الجولة في بعض تعريفات أهم الفلاسفة في العصر الحديث والمعاصر نلاحظ أن اختلاف الفلاسفة في تعريف الفلسفة يرجع إلى الزاوية الخاصة التي نظر بها كل منهم على حدة ، وهذا يؤكد أن الفلسفة من حيث وجهة النظر الخاصة بكل فيلسوف متعددة الجوانب .

فكل تعريف للفلسفة يعبر عن مذهب كل فيلسوف واتجاهاته " ومما تقدم يتبين أن لا واحد من التعريفات الحديثة يضع قيمة للفلسفة أو يفسرها من حيث هي ثمرة لتطور تاريخي ، وإنما هذه التعريفات عبارات تشرح لنا الآراء الشخصية لبعض المفكرين المستقلين فيما يجب أن تكون عليه الطريقة المثلى لدراسة الفلسفة في زمن من الأزمان " [٣].

بالإضافة إلى هذا يتضح لنا أن تنوع تعريفات الفلسفة عبر العصور المختلفة بل تنوعها في العصر الواحد يرجع إلى تنوع

(١) مدخل إلى الفلسفة . د/ أحمد رمضان صـ ١٠٦ .
(٢) نفس المصدر صـ ١٠٧ ، انظر : أسس الفلسفة د. توفيق الطويل صـ٥٦ – ٥٧ .
(٣) المدخل إلى الفلسفة . أزفلد كولبه صـ ١٣ – ١٤ .

الاتجاهات الفلسفية عبر العصور وتنوع مسائلها واختلاف مذاهبها ؛ إلا أن هذا لا يعني أنها لا تمتلك موضوعها الخاص ، ولكن يدل على تعدد الخبرة البشرية وأن كلمة الفلاسفة مهما تفرقت فالغرض لدى الجميع الوصول إلى الحقيقة [١].

(١) انظر : مشكلة الفلسفة . د. ذكريا إبراهيم صـ ٦٢ – ٦٣ مكتبة مصر ١٩٧١ ، وانظر محاضرات في الفلسفة العامة د. أحمد عبد الوهاب صـ ٦٧ – ٦٨ .

موضوعات الفلسفة

هناك تعريفات لا حصر لها وضعها الفلاسفة نتيجة لاختلافهم على تعريف الفلسفة ، لأن كل من وضع تعريفا للفلسفة ، فهو في الواقع قد وضع تصنيفا لعلومها أو موضوعاتها . ومن المعلوم أن تصنيف أفلاطون ربما كان أقدم تصنيف في هذا المجال فقد جعل للفلسفة أقساما أو موضوعات ثلاثة هي :

الجدل :

ويبحث في المعقولات وطبيعة الأشياء ووجودها .

العلم الطبيعي :

ويشمل علم الطبيعة والفلسفة الطبيعية وعلم النفس.

الأخلاق :

وهو العلم الديني ويبحث في السلوك الإنساني .

ولكن تقسيم " أرسطو " من بعده هو الذي ساد حتى العصور الوسطى ، لاسيما في الفلسفة الإسلامية ، وذلك حين قسم الفلسفة كما سيتضح فيما بعد إلى فلسفة نظرية تتكون من طبيعيات ورياضيات وميتافيزيقا ، وفلسفة عملية تتكون من موضوعات إنسانية كالأخلاق وتدبير الأسرة ، وموضوعات صناعية كالفنون والرسم والنحت .

ولقد أثر هذا التقسيم على الفيلسوف الإسلامي الكندي ، حتى جاء تقسيمه لموضوعات الفلسفة نفس ما ذهب إليه أرسطو تقريبا .

وفعل ذلك أيضا " الفارابي " في الفلسفة النظرية أما الفلسفة العملية فقد جعلها في موضوعين:-

الصناعة الخلقية : وهى ما يحصل بها العلم بالأفعال الجميلة والأخلاق الصادرة عنها .

الفلسفة السياسية : وهى ما تعرف بها وسائل تحصيل الأشياء الجميلة .

ولكن مع التقدم العلمي ، استقلت علوم كثيرة من الفلسفة واقتصرت في بحوثها على الموضوعات التالية :-

علم الكونيات :

وهو أول موضوع تتولى الفلسفة دراسته حيث عرضت لنظرية الوجود عرضا موسعا وأدلت برأيها في الزمان والمكان والمادة والحياة [١] .

وبينت أن أصل الحياة جاء بالخلق الإلهي المباشر ثم ذكرت الفلسفة المذاهب الأخرى التي انحرفت عن الصراط المستقيم وذكرت أن خلق الإنسان جاء بالصدفة أو بنظرية النشوء والارتقاء .

نظرية المعرفة :

وهى ثاني موضوعات الفلسفة التي بحثت بحثا مستفيضا ، ففرقت بين النفس والعقل ، والفطري والمكتسب ، والصواب والخطاء ، والظن واليقين [٢] ثم فصلت القول في مصادر المعرفة أو الطرق المؤدية إليها وهى الحواس كما يزعم الحسيون ؟ أم العقل كما يقول العقليون ، ثم فص لت القول حول إمكان المعرفة . وهل يستطيع الإنسان إدراك جميع الأشياء والوصول إلى كل الحقائق أم لا ؟ .

(١) انظر : مباحث ونصوص في الفلسفة الإسلامية أ. د / فتحي الزغبي جـ ١ صـ ٨٧ ط مكتبة الأزهر الحديثة بطنطا ١٤١٧هـ ١٩٩٧م.
(٢) نفس المرجع صـ ٨٧ .

٣ – نظرية الوجود :

كذلك تبحث في نظرية الوجود وهل هو مادي صرف أو روحي خالص أم هو خليط من المادة والروح ، أم يتركب من عنصرا آخر لا هو مادة ولا هو روح ؟

كذلك تبحث الفلسفة عن العناصر التي يتألف منها هذا الكون هل هي عناصر كثيرة أم عنصر واحد ؟

يقول الدكتور " توفيق الطويل " : إن الفلسفة الإسلامية قد عرضت بالدراسة العملية الدقيقة للمشكلات الفلسفية التي واجهت الفلاسفة في كل زمان ومكان فعالجت مشكلة الوجود لمعرفة أصله ومصيره ، وعرضت نظرية المعرفة ومدى إمكان العلم بالحقائق وأبانت عن وسائل الإدراك ومعايير التفرقة بين الصواب والخطأ وعالجت البحث في المثل الأعلى لسلوك الإنسان فميزت بين الفضيلة والرذيلة (١).

٤- نظرية القيم :

كذلك تهتم الفلسفة بدراسة القيم المطلقة والتي تتمثل في الحق والخير والجمال وبحثت في جوانبها المختلفة ، وهل هي مجرد أفكار ذهنية أم أن لها وجود خارج الذهن ؟

والجدير بالذكر هنا أن هذه العلوم الثلاث ليست علوم وصفية تدرس ما هو كان بالفعل ، بل علوم معيارية تحاول وضع المعايير أو المقاييس لتقويم التفكير الجيد والسلوك الخير والجمال في كل شيء (٢).

---

(١) انظر : الفلسفة في مسارها التاريخي د/ توفيق الطويل صـ ٢٨ نقلاً عن الفلسفة بين المشرق والمغرب د/ سعيد الهواري صـ ٢١ .

(٢) انظر : أضواء على الفكر الفلسفي د/ عبد المقصود عبد الغني صـ ٢٤ وما بعدها . مكتبة الزهراء الحديثة . ١٩٨٤ م ، أسس الفلسفة د/ توفيق الطويل صـ ٨٨- ٨٩.

٥- نظرية الروح :

كذلك تقوم الفلسفة بدراسة الروح أو العقل من جانبين هما :-

١- طبيعة الروح : فالبعض يرى أنهما جوهر أو كيان مستقل ، ويعبر عن ذلك بالنظرية الجوهرية ، والبعض الآخر يرى أن الذهن أو العقل أو الروح يتألف من حركات شديدة التعقيد في المخ ويعبر عن ذلك بالنظرية العادية ، والبعض الثالث يذهب إلى القول بأن الذهن أو الروح مجموعة من الوظائف ويعبر عن ذلك بالنظرية الوظيفة .

٢ - علاقة الذهن أو الروح بالجسد تحت هذا الجانب ثلاث نظريات إما نظرية التأثير المتبادل أي يؤثر كل منهما في الآخر ، أو نظرية التوازن أي لا يؤثر أحدهما في الآخر بل يسيران في توازن تام دون التقاء ، أو نظرية المصاحبة ، فإنها تذهب إلى القول بتأثير الجسم في الذهن دون العكس ؛ لأن الجانب الروحي مجرد ظاهرة مصاحبة للتغييرات الجسيمة [1] .

ملحقات الفلسفة :

بجانب الموضوعات التي سبق عرضها يوجد عدة موضوعات أخرى فرعية تدرسها الفلسفة تعد ملحقات لها وذلك مثل :-

أ - فلسفة القانون : التي تدرس فكرة العدالة المشتملة على مجموعة القوانين التي تسير عليها الدولة وتسمى بالفلسفة السياسية .

ب- فلسفة الدين : وهى تدرس بعض المفاهيم الدينية مثل الله والوحي والخير والشر والطاعة والمعصية وغير ذلك .

---

(١) انظر : أضواء على الفكر الفلسفي د/ عبد المقصود عبد الغني صـ ٣٠- ٣٨.

جـ - فلسفة التاريخ : وهى تهتم بدراسة من جانبين ، من جانب دراسة مناهج تدوين التاريخ وطريقة تمحيص الوقائع التاريخية ، وكذلك من جانب تفسير الأحداث التاريخية (١)

ويرى الدكتور " توفيق الطويل " : أن فلسفة القانون وفلسفة الدين وفلسفة التاريخ ما هي إلا دراسات نتجت عن البحث في المسائل الرئيسية ، ومن ثم فإن إلحاقها بعلومها كمواد مكملة لهما أولى من إلحاقها فروعا بالفلسفة (٢) .

---

(١) انظر : أسس الفلسفة د/ توفيق الطويل صـ ٩٠ـ ٩٥.
(٢) انظر : نفس المرجع صـ ٩٦ .



الفصـل الثـالث

نشـأة الفلسفـة

نشأة الفلسفة

اختلف مؤرخو الفلسفة اختلافاً ظاهراً حول مسألة من أدق المسائل هي مسألة المهد الأول الذي نشأت فيه الفلسفة المعتمدة على النظر العقلي ، والتأمل الفكري لأول مرة في التاريخ الإنساني .

ونراهم يتساءلون أين نشأت ؟ وما هي المصادر الأولى التي صدرت عنها ؟ واشتد الخلاف بين مؤرخي الفلسفة حول منبعها .

هل الفلسفة ابتدعت في اليونان وليس لها أية صلة بالشعوب الشرقية ؟ أو هي تراث شرقي نظمه الإغريق ؟

وهذه الأسئلة هي محور الدراسة في هذا الفصل لعلنا نقترب من الحقيقة في هذا الموضوع ، حيث إن هذه الأسئلة تثار من وقت لآخر ، ولا تزال توجه أمام الباحثين إلى يومنا هذا .

" مهد التفلسف "

الفريق الأول " الشرق القديم " :

يكاد ينعقد إجماع الباحثين على أن الشرق القديم قد سبق اليونان إلى ابتداع حضارات مزدهرة ، تقوم علوم علمية ناضجة ودراسات نظرية دينية قيمة .

فأما عن العلوم العلمية فحسبنا أن نشير إلى أن قدماء المصريين كانوا أول من ابتدع الرياضيات واخترع الميكانيكا وابتكر الكيمياء ، وأنشأ علم الطب ، وأول من اخترع الكتابة وأقام المكتبات ودور الكتب ، وأن البابليين والكلدانيين كانوا أول من درس أجرام السماء وأنشأ علم الفلك ، ومثل هذا يقال في سائر شعوب الشرق القديم من حيث سبقها للغرب الأوروبي القديم في مجالات البحث العلمي التجريبي .

أما عن التفكير النظري الديني فمن دلالات سبق الشرق الغرب في هذا المجال ما خلفه لنا قدماء الشرقيين من وجوه النظر العقلي في الألوهية والبعث والخير والشر والمبدأ والمعاد وغير ذلك من الموضوعات التي وجدت بعد ذلك لدى فلاسفة اليونان [١].

بل إنه منذ أكثر من ثلاثة وعشرين قرناً من الزمان ثار " إخناتون " على عقائد قومه وسخر منها .

وانتهى إلى أن أقوال الكهنة كلها إثم واضطراب " وثارت روحه الفتية على الفساد الذي تدهور إليه دين شعبه ، وكره المال الحرام ... وأعلن في شجاعة أن هاتيك الآلهة وجميع ما في الدين من احتفالات وطقوس كلها وثنية منحطة ، وأن ليس للعالم إلا إله واحد هو – آتون " [٢].

كذلك عرض التاريخ لنشاط ملحوظ لدي قدماء الهنود في شتى نواحي الحياة " وأن هؤلاء القوم قد ساهموا في بناء صرح المدنيَّة العالمية بنصيب وافر ، وكان لهم في تاريخ الفكر البشري مجهود جبار " [٣] لا ينكر .

فقد حاولوا تقديم تفسير للكون والحياة وعرضوا للعلاقة بين المادة والروح واهتموا اهتماما كبيراً بالنفس الإنسانية ومصيرها ، وربطوا بين الجزاء الأخروي وبين ما تقوم به النفس من أعمال في هذه الحياة .

أما بالنسبة لمسألة الألوهية فقد أعاروها جانباً كبيراً من تفكيرهم واحتلت مكاناً كبيراً في أبحاثهم ... ومثل هذا يقال في الصين حيث كان لهم دور ملموس في البحث العقلي تجلى على الخصوص

---

(١) انظر: أسس الفلسفة. د توفيق الطويل صـ ٣٤ – ٣٦. دار النهضة العربية . ط ١٩٧٩م .
(٢) قصة الحضارة . ول ديورانت ، المجلد الأول جـ ٢ . صـ ١٦٨- ١٦٩ . الهيئة العامة للكتاب ، ترجمة د. زكي نجيب ، محمد بدران ٢٠٠١ .
(٣) الفلسفة الشرقية . د. محمد غلاب . صـ ٨٨ نشر مكتبة الأنجلو المصرية ط ٢ .

في معالجات أخري لحقائق الوجود حيث توصلوا إلى القول بالخلود .[١]

أما بالنسبة للديانة الفارسية فقد توصلت إلى " مبدأ الثنائية التي ارتد فيها العالم إلى إله للخير وإله للشر "[٢].

وجعلوا المسئول عن الخير هو النور في حين كان الظلام مسئولاً عن الشر.

" كما عرف الهنود منذ أقدم العصور حلول الله في مخلوقاته"[٣].

ويحدثنا التاريخ فوق كل هذا كله بأن الأمم الشرقية قد اصطنعت العقل في استحداث العلوم والصناعات والفنون وبأنها لقنتها لليونان . مما يجعلنا نؤكد أن الفكر اليوناني اعتمد في أصوله على الثقافات الشرقية وظهر كثير من الباحثين والمفكرين ينادون بالإنصاف بأن الفكر اليوناني مدين من ألفه إلى يائه للشرق القديم .

فالفكر اليوناني " تأثر مباشرة بالمذاهب الدينية اليونانية ، وهذه المذاهب بدورها تضمنت بعض العناصر الشرقية التي لا يمكن أن يخطئها باحث منصف "[٤].

يقول " سارتون " في تاريخه للعلاقات العلمية بين الشرق والغرب " إن نور العلم قد انبثق من الشرق ، وما من شك في أن معارفنا العلمية القديمة – نحن الغربيين – مهما يكن أمرها فإنها ترد أصلاً إلى الشرق ، وإذا كنا لا نستطيع أن نقول الكثير بصورة محددة على الأصول الصينية والهندية التي صدر عنها علم الغرب ، فإننا على العكس نستطيع بتعيين وتحديد دقيق أن تنحدر بأصوله إلى تراث

(١) انظر: الفلسفة اليونانية . البير ريفو . ترجمة . د. عبد الحليم محمود ، أبو بكر ذكري صـ ٩- ١٠ نشر دار العروبة ١٩٥٨م .
(٢) أسس الفلسفة . د. توفيق الطويل صـ ٣٦ .
(٣) نفس المصدر صـ ٣٦ .
(٤) دروس في الفلسفة . د/ محمد كمال جعفر صـ ٩٩ مكتبة دار العلوم . ١٩٧٥م .

ما بين النهرين ومصر... إن العلم اليوناني يقوم كلية على أسس من تراث الشرق ، وبالغة ما بلغت العبقرية اليونانية من عمق ، فإن من المؤكد أنه ما كان يمكن أن تحقق كشوفاتها العلمية المعجزة بغير هذه الأصول الشرقية ، ومن ثم فليس من حق الغربيين أن يستبعدوا الأب والأم الذين نشأت عنهما هذه العبقرية اليونانية ، أما الأب فهو التراث المصري القديم وأما الأم فهي ذخيرة بلاد ما بين النهرين " (١).

و يأتي المؤرخ اليوناني " ديوجين لاإرس" الذي عاش في القرن الثالث بعد المسيح يحدثنا في كتابة (حياة الفلاسفة) عن فلسفة المصريين والفرس في العصور الغابرة حديثاً يثبت أن الشرق قد سبق الغرب إلى النظر العقلي وأنه كان أستاذه وملهمه (٢).

ويؤكد الأستاذ " مبير" المفكر الألماني على هذا المعنى فيقول : " إن المدنيَّة اليونانية لم تبدأ في الارتقاء الحقيقي إلا بعد أن احتكت بالشرق في (أيوليا) و(أيونيا) في أسيا الصغرى حيث كان في تلك البقاع مدنيَّة أرقى من مدنيَّة الأغريق " (٣).

ويقول الفارابي في كتابة (تحصيل السعادة) : " وهذا العلم كما يقال : أنه كان في القديم في الكلدانيين ، وهم أهل العراق ، ثم صار إلى أهل مصر ، ثم انتقل إلى اليونانيين ، ولم يزل إلى أن انتقل إلى السريانيين ثم إلى العرب " (٤) .

وكما هو واضح فالنص يثبت سبق الفكر الشرقي للفكر اليوناني خصوصاً وأن هناك من المؤلفات والباحثين من يؤكد هذا ويستدرك على الباحثين الغربيين الذين يتمسكون بوجهة النظر القائلة بأن الفكر الفلسفي وليد العقلية اليونانية فالتأمل في كتاب فلاسفة

---

(١) أسس الفلسفة . د/ توفيق الطويل صـ ٤٣/٤٢ .
(٢) انظر: الفلسفة الإغريقية د . محمد غلاب . جـ ١ صـ ١٥ .
(٣) التفكير الفلسفي الإسلام . د سليمان دنيا صـ ٢٩٨ . نشر مكتبة الخانجي ط ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧ م .
(٤) كتاب تحصيل السعادة . للفارابي . صـ ٨٨ تحقيق د جعفر آل ياسين . دار الأندلس ط٢ ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م .

الشرق لمؤلفه " أ. و. ف. توملين " يقف على معلومات وثيقة ، وحجج قاطعة وشواهد بينة بما لا يدع مجالاً لأدنى شك بأن الفلسفة ليست من خلق العقلية اليونانية أو ابتداعها بل إن الأمر في حقيقته لا يعدو أن يكون فرعاً من شجرة العائلة الشرقية [١].

وعلى هذا نجد أن حضارات الشرق القديم منها ما هو أسبق من الحضارة اليونانية كالحضارة المصرية التي يحدثنا التاريخ بأنها جذبت أنظار كثير من الفلاسفة اليونانيين ، بل إن منهم من ارتحل إليها ومكث ينهل منها أمداً غير قليل .

" ويكفي أن نذكر منهم (طاليس ، وفيثاغورث ، وأفلاطون) ، وقد أنشأ كل منهم بعد عودته مدرسة فلسفية ، تختلف كل منها عن الأخرى شكلا وموضوعا ومكانا ، ولكل منها أثر بالغ في تاريخ الفكر من جهة ، وفي التأثير على المجتمع من جهة أخرى " [٢].

وكان كل هذا نتيجة لما تلاقوه من الحضارة المصرية القديمة فقد قاموا " بالاتصال بالكهنة فأخذوا عنهم آخر ما انتهى إليه العلم المصري ونقلوه إلى بلادهم وأذاعوه وسموا المعرفة الجديدة التي ابتدعوها فلسفة " [٣].

لهذا كله نرى صاحب كتاب الفلسفة في الشرق ينتهي إلى أن التفكير الفلسفي لم يبدأ في اليونان ، وأنه ليس وقفاً على الغرب وحده ؛ بل إن الغرب مسبوق في هذه الناحية بالشرق على الرغم من كون النظم الشرقية كانت أكثر صلة بالحياة الدينية منها بالتفكير الفلسفي وذلك يرجع إلى كلا نوعي التفكير قد اختلط خلال العصور

(١) انظر : فلاسفة الشرق . أ.و.ف. تاملين صـ . ١٧- ٢٤ . ترجمة عبد السلام سليم – ط دار المعارف .
(٢) المدارس الفلسفية. د/ أحمد الأهواني صـ . ٨ .الدار المصرية للتأليف والترجمة – ١٩٦٥ .
(٣) المدارس الفلسفة . د/ أحمد الأهواني . صـ . ٧ .

الإنسانية كلها ، وكل محاولة ترمي إلى إيجاد فاصل بينهما سيؤدي إلى جعل كليهما غير مفهوم . (1)

والحق أن الشرق القديم قد سبق اليونان في استخدام العقل في استحداث الصناعات والعلوم والفنون وسبقه إلى ابتداع حضارات لا يزال العالم يقف أمامها إعجابا وانبهاراً وتقديراً ، وقد جاء ذلك نتيجة قيامه على علوم ناضجة ونظريات دينية قيمة ، وفوق هذا علم ذلك كله لليونانيين وبذلك أعناهم عن عناء البحث ويدل على ذلك ما يلي :-

١ - طبيعة المسائل الفلسفية التي درست لدى العقلية اليونانية :

فقد أثبتت الأبحاث العلمية أن جل المسائل الفلسفية أو جميعها قد أثيرت في الشرق وتناولتها عقولهم بالبحث والدراسة ، فقد نظروا في أسمى المسائل الفلسفية مثل الخير والشر ، والوجود والتغير ، والأصل والمصير ، فكان التوحيد والشرك ، وكانت الثنائية الفارسية وكانت وحدة الوجود عند الهنود ، وغير ذلك من الموضوعات الأخرى التي تشكل النظريات الكبرى للفلسفة .

٢ - إن جهود المستشرقين كشفت عن قيام مدنيات شرقية قديمة سابقة في التقدم على مدنية الإغريق بعدة قرون :

كمصر والعراق مثلاً هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أبانت هذه الجهود عن وجود علائق قوية بين بعض ما تحويه هذه المدنيات و بين الفلسفة الإغريقية ، ويؤيدون رأيهم هذا بما يرونه من الشبه الموجود بين نظرية طاليس التي تجعل من الماء أصلاً للعالم وبين بداية القصيدة البابلية المعروفة باسم (قصيدة الخلق) ، فقد ورد في هذه القصيدة ما نصه :

---

(1) انظر : الفلسفة في الشرق . بول ماسون صـ . ١٦ . ترجمة د/ محمد يوسف موسى . ملتزم الطبع دار المعارف المصرية بمصر .

" في البدء قبل أن تسمى السماء ، وقبل أن يعرف للأرض اسم كان المحيط وكان البحر وكانت مياههما مختلطة " [١] .

ويضاف إلى ما سبق ما وجد من الشبه بين نظرية طاليس وبين ما جاء في القصيدة المصرية التي تقول :

" في البدء كان المحيط المظلم ، أو الماء الأول حيث كان آتون وحده الإله صانع الآلهة والبشر والأشياء " [٢] .

فأنت إذا عقدت مقارنة بين هذين النصين وأشباههما وبين فلسفة طاليس عن الكون انتهيت إلى أن الفيلسوف اليوناني لم يكن مبتكراً لفكرة جديدة انفرد بها هو دون أن يكون لهذه الفكرة ما أثارها في عقله من الأساطير القديمة التي اصطبغت بها الفلسفات الشرقية .

فالفلسفة الطبيعية لم تكن إلا صورة جديدة لكثير من الأفكار القديمة التي سيطرت على عقول الشرقيين في ذلك الوقت .

٣- ما قرره علماء الإنثروبولوجي :

علم وصف الإنسان أو التاريخ الطبيعي للأجناس البشرية من أنهم عثروا في أثناء بحوثهم على شواهد قاطعة بأن بعض النظريات الإغريقية لا يمكن أن تكون من أصل إغريقي ، لأنها توفرت فيها جميع شرائط العقلية و خواصها .

٤- ما أكده علماء الرياضة :

فقد توصلوا من خلال دراستهم للأهرام أنه يستحيل أن تبنى الأهرام على هذه الهيئة في بلد ما دون أن تكون تلك البلد قد قطعت شوطاً كبيراً في الهندسة العلمية .

---

(١) انظر : في معنى الفلسفة وموضوعها وأقسامها . د/ محمد مصطفى حلمي صـ . ١٠٥ . نشر دار الطباعة المحمدية .

(٢) محاضرات في الفلسفة العامة . د/ أحمد عبد الوهاب صـ . ١٥ .

٥- عثور الباحثين الأثريين على كلمات العدالة والفضيلة :

والنفس والحياة الآخرة في الشرق قبل مبدأ وجودها في الغرب بقرون طويلة ، وتأكدهم من أن الغرب لم ينطق بهذه الكلمات إلا بعد اتصاله بالشرق .[١]

٦- ارتحال كثير من فلاسفة اليونان إلى بلاد الشرق القديم :

مثل طاليس الذي زار مصر وتتلمذ على أساتذتها " وهناك تعمق بعلم الفلك فاستطاع أن يتنبأ بخسوف الشمس حوالي ٢٨ آيار سنة ٥٨٥ ق . م "[٢] .

ورحلة فيثاغورث إلى الهند ومصر هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن الدارس للآثار التي خلفها المصريين والبابليين وغيرهم من أمم الشرق القديم يجد أنها قد حوت بذور الأفكار اليونانية كلها تقريباً .

٧- وأخيراً ما وجد من آثار فن التحنيط في مصر :

مما لم يكن له وجود في بلاد اليونان ولا غيرها ، الأمر الذي يدل على التقدم الهائل في علوم الكيمياء ، كما يدل عليه أيضاً ثبات الألوان والأصباغ منذ القدم[٣] .

كل هذه الأدلة تركد على أن مهد التفلسف بدء في الشرق القديم فقد انطلقت منه البدايات الأولى للبحث الفلسفي ، فقد سبق الشرق القديم اليونان في ابتكار حضارة قوية وعظيمة امتدت أمداً طويلاً من الدهر ، وقد قامت على علوم علمية وأخرى نظرية ، الأمر الذي جعلها محط أنظار لدى كثير من رواد البحث وطلاب المعرفة فوفدوا إليها ، ومكثوا بها أمداً غير قليل ينهلون من علومها وفنونها .

---

(١) انظر : الفلسفة الشرقية . د/ محمد غلاب . صـ . ١٨ .

(٢) موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأجانب . إعداد أ/ روني إيلي ألفا . جـ ٢ . صـ . ٦٤ . دار الكتب العلمية . بيروت ط ١ – ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .

(٣) محاضرات في الفلسفة العامة والأخلاق . د/ عبد الحميد عبد اللاه . صـ . ١٠ . مطبعة الميدان . ط ١ ١٩٩٩م .

الفريق الثاني " بلاد اليونان " :

بجانب وجهة النظر السابقة التي ترى أن الفلسفة وليدة الشرق القديم لاح في الأفق اتجاه آخر جرد الفكر الشرقي من أي فضل فلا يوجد ما يسمى بالفكر الشرقي ، كما أن الغرب ليس مديناً له في أي جانب من جوانب حضاراته .

فعلى الرغم من أن الشرق قد سبق الغرب إلى ابتداع الحضارات إلا أن الفلسفة وليدة العقلية اليونانية وقد جاء على غير مثال سابق .

ويؤكد ذلك صاحب كتاب دروس في تاريخ الفلسفة فيقول :

" ففي العصر القديم لا نجد فلسفة بمعنى الكلمة إلا لدى اليونان فعندهم نبتت وتمت وتم تكوينها فيما بين القرن السادس والقرن السابع قبل المسيح ، واستمرت بينهم إلى أن تقلدها منهم الغرب المسيحي والشرق الإسلامي ، واليهودي ، ثم تطورت طوال العصر المتوسط حتى بلغت إلى العصر الحديث فاصطنعها هو أيضاً ، وذهب فيها مذاهب شتى دون أن يفقدها وجهها الأصلي ، ونحب هنا أن يفهم مرادنا على حقيقته فنحن لا نقصد إلى أن الشعوب الشرقية القديمة لم تعرف المسائل الفلسفية الكبرى ، بل عرفتها وأعملت فيه عقولها قبل أن يتفلسف اليونان ، ولكنها لم تعالجها بالحد والبرهان كما فعل هؤلاء ، بل أرسلت القول فيها على نحو ما يرسل الشعراء ، واستخدمت الشيء الكثير من الخيال ، فصاغت آراءها في قصص وأساطير ، وجاءت هذه الآراء أقل نضوجاً من آراء فلاسفة اليونان ... فالفلسفة علم يوناني ولا يظن أحداً يجادل في ذلك " [1] .

---

(١) دروس في تاريخ الفلسفة . د. إبراهيم مدكور ، أ. يوسف كرم . صـ . م-ن من المقدمة . مطابع مدكور وأولاده . ١٩٥٤م .

والحق أن هذا تجن واضح على عقول الشرقيين القدماء الذين أسهموا بنصيب وافر في الحضارة الإنسانية .

نعم قد يكون غاب عنهم كيفية صياغة الآراء وبناء النظريات على نحو ما عرف ووجد بعد ذلك لدى اليونان ؛ إلا أن هذا ليس داعياً لإنكار دورهم في الحضارة .

وبجانب ما سبق عرضه نلمح في سحب الجحود والإنكار صورة أخرى معتمة فارسها " بارتلي سانت هلير " الذي قام بترجمة الكون والفساد " لأرسطو طاليس " من الإغريقية إلى الفرنسية ، وقد صدر هذه الترجمة بمقدمة في الفلسفة الإغريقية فيها إنكار كل فضل للشرق القديم وتجريده من كل ميزة له .... فيقول :

" أما من جهة الفلسفة الشرقية فإننا لا نعرف ، بل لن نعرف أبداً من أمرها شيئاً معيناً بالضبط فيما يختص بعصورها الرئيسية وانقلاباتها ، فإن أزمنتها وأمكنتها وأهلها تكاد تعزب عنا على سواء ، إنها مستعصمة دون إدراكنا ، مدعاة للشكوك لما يغشاها من كثيف الظلمات ، حتى لو عرفنا منها هذه التفاصيل مع الضبط الكافي لما أفادنا ذلك إلا من جهة إرضاء رغبتنا في الاطلاع دون أن يتصل بنا أمرها كثيراً ، إن الفلسفة الشرقية لم تؤثر في فلسفتنا ومع التسليم بأنها تقدمتها في الهند ، والصين ، وفي فارس ، وفي مصر ، فإننا لم نستعر منها كثيراً ولا قليلاً " [1] .

وقد استند هؤلاء إلى عدة أدلة منها : -

١- طبيعة التفكير الشرقي القديم :

فالمتأمل فيه يجد أنه لم يلتمس المعرفة لذاتها ، وإنما التمسها لغاية أخرى وهي إما سداً لحاجة عملية ، وإما إشباعاً لعقيدة دينية .

---

(١) الكون والفساد . أرسطو طاليس . ترجمه إلى الفرنسية بارتلي سانت هيلر . صـ . ٢ . مقدمة المترجم . نقله إلى العربية أحمد لطفي السيد . ط . دار الكتب المصرية . ١٣٥٠هـ - ١٩٣٢م .

فلم " تنظر في المسائل لذاتها كموضوعات علم مستقل مرتبط الأجزاء ، بل اعتبرتها مسائل دينية وعالجتها بالقدر اللازم للدين ، فلم تجرد الفلسفة من الدين " [١] .

على حين أن الأمر على خلاف ذلك لدى العقلية اليونانية فقد كان أهم ما يميزها هو " التماس المعرفة لذاتها ، بمعنى أن يتجه العقل إلى كشف الحقيقة بباعث من اللذة العقلية ، ومن غير أن تدفعه إلى ذلك أغراض عملية - أو غايات دينية ، وهذا النوع من المعرفة النزيهة قد نشأ لأول مرة في ظل اليونان وعاش في كنفهم ، وبحثوا في الوجود لمعرفة أصله ومصيره ، وتأملوا موجوداته وما يعروها من صنوف التغير بدافع الرغبة النزيهة في طلب المعرفة ، ومن غير أن تسوقهم إليها ضرورة ملحة " [٢] .

٢- صيغة البحث عند الشرقيين :

فلو لاحظنا صيغة القول ومنهج البحث لديهم ، لم ندع هذا الضرب من المعرفة والتفكير علماً وفلسفة ، بل دعوناه ما قبل العلم والفلسفة ، فإن علومهم جميعاً من حساب وهندسة وفلك وغيرها ، لم تعد ملاحظات تجريبية أدت إليها حاجات عملية ، وفيها تردد وتعثر " [٣] يدلان على أن أصحاب هذه العقلية لا تستطيع أن " تؤلف منطقاً ولم تدرس الجدل لذاته ، بغية بيان أصوله وطرقه ، ولم تستخلص المناهج العلمية التي تصعد بالاستقراء [٤] من الجزئي إلى

---

(١) دروس في تاريخ الفلسفة . د. إبراهيم مدكور وزميله . المقدمة . صـ . م . ن .

(٢) أسس الفلسفة . د. توفيق الطويل . صـ . ٣٧ .

(٣) تاريخ الفلسفة اليونانية . يوسف كرم ٠ صـ . أ . من المقدمة .

(٤) الاستقراء : هو تتبع الجزئيات للوصول إلى حكم كلي يشمل ما تصفح منها ومالا يتصفح ، أو هو انتقال الفكر من الحكم على الجزئي إلى الحكم على الكلي . (انظر : المرشد السليم في المنطق القديم والحديث د . عوض الله حجازي صـ ١٨٤ . دار الطباعة المحمدية طـ ٥ ، علم المنطق د. أحمد رمضان ٣٤٤ ـ ٣٤٥ . مكتبة الإيمان بالمنصورة طـ ١) .

الكلي وتنزل بالقياس [١] من الكلي إلى الجزئي ، وإن تكن جادلت واستقرت وقاست جرياً مع قطرة العقل دون علم بالقواعد " [٢] .

٣- إن الفلسفة اليونانية تصطبغ بصبغة قومية ملحوظة :

فقد كانت في مذاهبها الرئيسية لا تستوحي ديناً ، ولا تستفتي عرفاً ولا تقيم لغير منطقها وزناً ، على عكس الحال في حكمة الشرق القديم إذ لم يقدر لها قط أن تستقل عن الدين وتستغني عن وحيه [٣] .

لهذا جاهر مؤرخو الغرب بأن الشرق وإن أنشأ الحضارات الإنسانية الأولى ، فإن علم الفلسفة بمعناها النظري من ابتداع اليونان.

ولقي أصحاب هذا الرأي مؤيدين كثيرين من أمثال " رسل " [٤] حيث يقول في كتابه تاريخ الفلسفة الغربية :

وليس منا من لا يعلم ما أورده اليونان في الفن والأدب ، ولكن ما أوردوه في النطاق العقلي أشد غرابة مما أورده في الفن والأدب فهم الذين أنشئوا الرياضة والفلك والطب والفلسفة إنشاءً [٥] .

وكما هو واضح فالنص يثبت أن الفلسفة نمت في اليونان فقط ، وليس للشرق القديم أي جهد يذكر في هذا المجال ، فالفلسفة الشرقية لم تؤثر في الفلسفة الإغريقية بأي وجه من الوجوه .

---

(١) القياس : قول مؤلف من أقوال إذا سلم ما أورد فيها من القضايا لزم عنه لذاته قول آخر. (انظر : الإشارات والتنبيهات . ابن سيناء . تحقيق د. سليمان دينا . القسم الأول . صـ . ٣٧٠. ط دار المعارف) .

(٢) دروس في تاريخ الفلسفة . د . إبراهيم مدكور وزميله صـ . ن من المقدمة .

(٣) انظر : أسس الفلسفة . د. توفيق الطويل . صـ . ٣٩-٤٠ ، مدخل إلى الفلسفة . د. أحمد رمضان . صـ . ١٦٦ . ط الدار الإسلامية للطباعة والنشر .

(٤) رسل . فيلسوف رياضي ومنطقي وعالم اجتماع إنجليزي ولد عام ١٢٨٩هـ - ١٨٧٢م وتوفي عام ١٣٩٠هـ . ١٩٧٠م . تلقى تعليماً خاصاً وترك مؤلفات كثيرة (انظر : موسوعة أعلام الفلاسفة . جـ ١ . صـ . ٤٨٢-٤٨٤) .

(٥) تاريخ الفلسفة الغربية . رسل . جـ ١ . صـ . ٢٣ . ترجمة . زكي نجيب محمود ، وزميله . ط ١٩٧٨م .

وقد روج لهذا الاتجاه أيضاً ودافع عنه بعض الشرقيين عنصراً وموطناً :

(١) أ . يوسف كرم .

ففي معرض حديثه عن الأمم الشرقية يقول ما نصه :

" لقد وجد العقل الإنساني وبقي هو في جوهره ، واستخدمته الأمم الشرقية في الماضي السحيق فاستحدثت الصناعات والعلوم والفنون ، ولقنتها لليونان ، فأغنتهم عن بذل الجهد ولاقت في استكشافها بأنفسهم وفضلاً عن الفنون والعلوم نجد عند الأمم الشرقية القديمة قصصاً دينية وأفكاراً في الحياة إذا اعتبرنا موضوعها ومغزاها رأيناها حقيقة بأن تسمى فلسفة فقد نظروا في أسمى المسائل مثل الوجود والتغيير والخير والشر ، والأصل والمصير فكان التوحيد والشرك وكانت الثنائية الفارسية ، وكانت وحدة الوجود عند الهنود ، وكان غير ذلك ، ولم تخرج الفلسفة فيما بعد – عن هذه النظريات الكبرى بل قد تستطيع أن تجد لكل فكرة يونانية مثيلة شرقية تقدمتها وأصلاً قد تكون نبتت منه غير أننا إذا لحظنا صيغة القول ومنهج البحث عند الشرقيين لم ندع هذا الضرب من المعرفة والتفكير علماً وفلسفة بل دعوناه ما قبل الفلسفة... ويصح هذا القول بأن الشرق لم يعلم اليونان أي لم يلقنهم مذهباً أو منهجاً ، وإنما حفزهم إلى التفكير مما أدى إليهم من مواد جمعها أثناء قرون طويلة قاموا يعالجونها على نحو علمي " . (١)

وقد ناقش الدكتور سليمان دنيا صاحب هذا النص بقوله :

" وفي هذا النص نجد صاحبه يأخذ بشماله ما أعطى بيمينه فالأمم الشرقية استحدثت الصناعات والعلوم والفنون ، ولقنتها

---

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية . يوسف كرم . صـ . تصدير .

لليونان ، فأغنتهم عن بذل الجهد ولاقت في استكشافها بأنفسهم ، ولكن هذه العلوم والصناعات والفنون ليس علوماً ولا صناعات ولا فنوناً ، وإنما هي ما قبل العلوم والصناعات والفنون ، والأمم الشرقية قد نظرت في أسمى المسائل مثل الوجود والتغيير والخير والشر ، والأصل والمصير ، ولكن هذا النظر لا يسمى نظراً بل ما قبل النظر " (1) .

(٢) د . عبد الرحمن بدوي :

من بين الذين تمسكوا بوجهة النظر القائلة بأن الفلسفة علم وليد العقل اليوناني فهو يقول : إننا لا نزال عند رأينا وهو أن الفلسفة لم تنشأ عن فلسفة شرقية مزعومة (2) .

(٣) أحمد أمين و زكي نجيب محمود :

من بين الذين أخذوا بهذا الاتجاه وروجوا له ففي كتابهما قصة الفلسفة اليونانية في معرض حديثهما عن نشأة الفلسفة يقولان :

" إن هذا الضرب من التفكير الذي يحاول أن يوحد بين ظواهر الكون المتنافرة ، والذي يرفض التسليم الساذج رفضاً تاماً والذي يسمو بالعقل فوق المستوى المادي من حيث أسلوب التفكير وصور الفكر ... إن هذا التفكير الفلسفي الصحيح لم ينشأ ولم يتم إلا عند شعب واحد دون الشعوب القديمة جميعاً هو اليونان القدماء " (3) .

ثم يستمر في دعمه لهذا الاتجاه فيقول : " لم تستمد الفلسفة اليونانية أصولها من تلك الأمم القديمة ولكن خلقها اليونان

(١) التفكير الفلسفي الإسلامي . د. سليمان دنيا . صـ . ٢٩٦ .
(٢) مدخل إلى علم الفلسفة . د. أحمد رمضان . صـ . ١٦٤ .
(٣) قصة الفلسفة اليونانية. د. زكي نجيب ، د. أحمد أمين . صـ . ١٢ . نشر دار النهضة المصرية . ط ٨.

خلقاً ، وأنشئوها إنشاءً ، فهي وليدتهم وربيبتهم ليس في ذلك ريب ولا شك " [١].

والحق أن هذا تجن ظاهر ، وإنكار واضح لفضل الشرق على الغرب وأسبقيته له في استكشاف الفنون واستحداث العلوم والصناعات يقول أحد الباحثين :

" من الخطأ بل من سذاجة الأطفال أن نفترض أن العلم بدأ في بلاد اليونان فإن العبقرية اليونانية والمعجزة الإغريقية قد سبقت بآلاف من الجهود العلمية العظيمة في مصر وفارس وغيرهما من الأقاليم ، والعلم اليوناني كان إحياء أكثر منه اختراعاً " [٢] .

ومعنى هذا أن الفلسفة اليونانية لم تكن نتيجة محتومة وتطوراً منطقياً للعبقرية اليونانية وحدها ، فالشرق لم يسبق الإغريق في الفلسفة وحدها بل تقدمهم أيضاً في العلم ، فقد أكد بعض الباحثين على أن : حروف الهجاء كما نعرفها اليوم لا بد أنها اخترعت في منطقة فلسطين وسوريا حوالي منتصف الألفية الثانية قبل الميلاد ، ولكن المصريين كانوا يستخدمون حروفاً أبجدية في وقت مبكر عن ذلك حوالي ٣٠٠٠ ق . م [٣] .

كل ذلك يجعلنا نؤكد على أن من البدهي أن نقول : إن فلاسفة الشرق لهم الفضل الأكبر في العلم والمعرفة على اليونان ، ولئن كان يعاب عليهم بأنهم جهلوا الفلسفة وعالجوا مسائل " الألوهية والنفس والعالم الآخر عالجوها بالبداهة والخيال دون الاستدلال " [٤] .

" فمن الإنصاف أن نصحح هذا الافتراء فنقول : " إن اليونان قد أفادوا من تراث الشرق القديم في الفنون والعلوم العلمية ، فأعانهم

---

(١) المصدر السابق . صـ . ١٣ .
(٢) انظر : تاريخ العلم . جورج سارطون . جـ ١ . صـ . ١٢ . ترجمة لفيف من العلماء . نشر دار المعارف . ط ٣ ١٩٧٦ .
(٣) انظر : فلاسفة الشرق . أ.و.ف. ترجمة عبد الحميد سليم . صـ . ٢٤ .
(٤) تاريخ الفلسفة اليونانية . يوسف كرم . صـ . و من المقدمة .

هذا على أن يفرغوا للبحث النظري النزيه في حقيقة الموجودات وماهيتها بحثا قوامه التحليل المنطقي ، والترابط العلمي والبرهان العقلي " [1] .

تعقيب :

ما من شك أننا أمام وجهتي نظر مختلفتين إحداهما ترى أن الفلسفة علم وليد الشرق القديم والأخرى ترى خلاف ذلك فترى أنه علم وليد العقلية اليونانية وحدها ، على الرغم من سبق الشرق للغرب في إنشاء الحضارات .

وفي تقديري أن التعصب لأي من الرأيين يعد خروجاً عن منهج البحث العلمي ، كما أنه يعد في نفس الوقت خروجاً عن قواعد الفلسفة واتهام لها لأن - من أولى ما تتميز به الفلسفة - الموضوعية .

لهذا أقول ليس تعصباً أن نقرر أن الفكر الإنساني قاسم مشترك بين جميع أفراد البشر وإن اختلفت درجاته نتيجة لعوامل ثقافية أو بينية أو اجتماعية أو وراثية أو غير ذلك ، لكنه في نفس الوقت سلسلة متصلة الحلقات يأخذ اللاحق من السابق ويتأثر به ويضيف إليه وقد يعدل من آرائه . فالعرف قد جرى على ذلك لكونه حلقه متسلسلة ليس مقصوراً على شعب دون آخر ولا جنسية دون أخرى ، فالفكر شعاع من نور لا يقف حكراً على بيئة أو جماعة دون أخرى .

وحيث إن الأبحاث العلمية قد أجمعت على أن الشرق قد سبق الغرب في ابتداع حضاراته ، وأن الفلسفة عرفت باسم الحكمة في منطقة الشرق ابتداءً من البابليين ثم المصريين ثم الفارسيين

---

(١) أسس الفلسفة . د. توفيق الطويل . ص . ٤٠ .

والصينيين والهنديين وكان ذلك قبل أن يتفلسف العقل الغربي وينطلق من جموده ويفك أغلاله .

والذي يقرأ تاريخ الفلسفة يقف على هذه الحقيقة دون كبير عناء .

فقد كان التقدم في العلوم والفنون ظاهراً لدى حكماء الشرق القديم على خلاف ما زعمه " رسل " ومن على شاكلته إلا أنها علوم وفنون نشأت في أحضان الدين وقامت لأجله لا شك في ذلك ، لكن في نفس الوقت يحدثنا التاريخ بأن كثيراً من فلاسفة اليونان قدموا إلى بلاد الشرق وأخذوا من هذه الحضارات التي نشأت في كنف الدين ونقلوها إلى بلادهم تحت اسم الفلسفة .

وعلى هذا يصح القول : بأن المذاهب الفلسفية والنظريات العلمية أقدم من اليونان ولكنها ظهرت في ثوب جديد عند اليونان ، بمعنى أن العلم النظري القائم على العقل المجرد والذي كان يطلب المعرفة لذاتها كان هذا من حظ اليونان أكثر مما كان من حظ الأمم الشرقية القديمة مع سبق الشرق لليونان في مثل هذه المسائل وفقاً لحاجاتهم العلمية والدينية ولا يعيب الفكر من حيث هو فكر أن يقصد به سد حاجة علمية ، فالبحث في الوجود لمعرفة أصله نشأ مع الإنسانية والأمم الشرقية القديمة جالت في البحث النظري كغيرها من الأمم وإن كان ذلك تلبية لحاجة علمية أو رغبة دينية .

وعلى هذا فالقول بأن الفلسفة وليدة العقلية اليونانية دون أن يكون للشرق القديم أي أثر فيها حكم جائر ينم عن عنصرية واضحة .

فكل هذا من قبيل الأحكام الجائرة الطائشة التي تنم عن خلل في الرأي وبعد عن الصواب بدافع من التعصب الأعمى الذي لا سند له إلا العنصرية الزائفة والجنسية الباطلة .

تلك فيما يبدوا لنا هي كلمة العدل التي تضع الأمور في نصابها وتعطي كل ذي حق حقه ؛ لأن الإنصاف يقتضينا ألا نبخس الأمم حقهم دون النظر إلى الأمم بزاوية خاصة " فالتفرقة بين العقليتين السامية والآرية في هذه الناحية وغيرها تعد أسطورة في وقتنا الراهن ، إذ أن كل أمة تستطيع الاتجاه إلى الفلسفة وإلى الابتكار فيها ، متى أتيحت لها الشروط الملائمة لنمو هذا النوع من التفكير النظري ، ونقول إنها أسطورة لأننا نعلم أن الأجناس لا تختلف مطلقاً من جهة التركيب البيولوجي والعقلي ، بل لا تكاد تختلف إلا من جهة اللغة والظروف التاريخية التي تحيا فيها ، وهذه الظروف متغيرة متحولة لدى جميع الشعوب وإن اختلفت درجة تغيرها سرعة أو بطئاً " [1] .

(١) نصوص مختارة من الفلسفة الإسلامية . اختارها وقدم لها د . محمود قاسم . ص . ٤ . نشر مكتبة الأنجلو المصرية . ط ٣ ١٩٦٩ .


الفصل الرابع
علاقات الفلسفة

أولاً : العلاقة بين الفلسفة والعلم

كانت علاقة الفلسفة بجارها الأكبر أكثر توافقاً وتعاوناً فعلى الرغم من الاتهامات المتبادلة والمناقشات العائلية المعتدلة التي كانت تحدث من آن لآخر ، فقد عاشت الفلسفة والعلم معاً كما تعيش الأم مع ابنها الذكي . وقد ارتكب كل منها خطأ التعصب الجامد في اللحظات التي لم يكن منتبها فيها ، كما كان العلم يعيب على الفلسفة تمسكها بأفكار وأساليب عفي عليها الدهر، لهذا جاء رد الفلسفة بتوجيه نقد أوسع للمسلمات التي يستخدمها العلم ، وأبدت قلقا من أن يرتكب ابنها في لحظة طيش خطأ " رمي الطفل الوليد مع الماء المستحم" (١).

وذلك بأن ينظر إلى أوجه التجربة البشرية التي لا يمكن دراستها في المعمل على أنها غير ذات جدوى. ومع ذلك فقد ظلت العلاقة بينها عموما علاقة احترام متبادل (٢).

فالعلاقة بينهما وثيقة تمتد إلى أعماق التاريخ ، وتمر عبر مراحله المختلفة ، فقد كانا شيئاً واحداً . فالفلسفة ترادف العلم ، والعلم جزء من مباحث الفلسفة . وقد ظل هذا الارتباط بينهما حتى عصر الازدهار في الحضارة الإسلامية .

وفي الصفحات التالية نعرض لبعض أوجه الشبه بالإشارة إلى أن غاية كل منهما واحدة تنحصر في كلمة "البحث عن الحقيقة" فكانت الفلسفة عند القدماء علما وكان العلم والفلسفة يدلان على مفهوم واحد إذ كانت الفلسفة تشمل ألوان المعرفة البشرية

---

(١) المقصود من هذا المثل حرفيا : أن يخطئ المرء وهو يحاول أن يلقي بماء حوض الاستحمام بعيدا فيلقي معه بالطفل الوليد الموجود فيه والمثل ينطبق على الحالة التي يتحدث عنها المؤلف ، والتي يحاول فيها العلم تطهير نفسه من الشوائب، فيبالغ في ذلك إلى حد استبعاد اعمق ما في التجربة البشرية مع تلك الشوائب التي أراد التخلص منها.(انظر هامش الفلسفة أنواعها ومشكلاتها ترجمة د/ فؤاد زكريا صـ٤١) .

(٢) انظر : الفلسفة أنواعها ومشكلاتها ترجمة د/ فؤاد زكريا صـ ٤٠-٤١ .

كلها ، وكان " طاليس " وهو أول الفلاسفة طبيعيا ورياضيا ، وكان فيثاغورث رياضيا ومهندسا ، واعتبر أفلاطون الرياضيات أساسا للتفلسف.

على ضوء هذا التجاور بين العلم والفلسفة يلاحظ " جيمس جينز " أن كثيرا من الفلاسفة كانوا علماء للفيزياء في نفس الوقت منذ بداية التاريخ المدون حتى نهاية القرن السابع عشر ، فالأسماء الرنانة في الفلسفة مثل " طاليس " و" أبيقور " و" هيراقليطس" و" أرسطو " و" ديكارت " و" ليبنتز " كانت أسماء كبيرة في العلم أيضاً [١].

ومن فلاسفة الإسلام أيضاً كان الكندي الذي اشتهر بعلم الأدب والموسيقى والطب ثم بعلوم الفلسفة كلها ، ولم تكن نفسه تكتفي بميدان واحد من ميادين العلم أو تقتصر على لغة واحدة فأخذ يتعلم من اللغات ما يشبع طموحه العلمي ويصل من خلاله إلى ما يريد.

أما الفارابي فقد كان له شأن غيره من فلاسفة مدرسته يحيط علماً بكثير من العلوم والمعارف ، فقد كان رياضيا وطبيبا لا بأس به وفيلسوف بكل ما للكلمة من معنى على حد قول " مسينون " [٢] وقل مثل هذا في ابن سينا وابن رشد وأبي بكر الرازي وغيرهم .

وقصارى القول : أن الارتباط بين الفلسفة والعلم ظل أمداً طويلاً ، ولم يبدأ العلم بالانفصال عن الفلسفة إلا بعد أن تحدث " روجر بيكون " عن التجربة وكان ذلك في بدايات العصر الحديث . فبدأت العلوم الجزئية تنفصل عن العلم الأم " الفلسفة " وكان أول ما انفصل عنها علم الطبيعة ثم توالى انفصال العلوم عنها حتى انفصل عنها علم النفس وعلم الاجتماع .

---

(١) انظر : الفيزياء والفلسفة جيمس جينز ترجمة جعفر رجب صـ٣٢ ، ٣٣ دار المعارف ١٩٨١م .
(٢) انظر: تدريس العلوم الفلسفية.. د/ عبد المجيد عبد الرحيم صـ ١٩٨-٢٠١ .

ولكن مع هذا فقد كان هناك بعض الفلاسفة في العصر الحديث ينظرون إليها على أنها أم العلوم أمثال " ديكارت " .

فالعلاقة بين الفلسفة والعلم ظلت أمداً غير قليل ، وعلى الرغم من خروج العلم عليها إلا أنه لا يستغني أحدهما عن الأخر حيث إن العلاقة بينهما علاقة تكامل فالفلسفة بدون العلم خاوية والعلم بدون الفلسفة أعمى ففي كل العصور تقريباً نلمح نمواً للعلوم عن طريق الفلسفة ، وتجدد في الفلسفة عن طريق العلوم [(١)].

ومن هنا تشابهت الأسس التي قام عليها كل من الفلسفة والعلم القديمين فكانت هي:-

(أ) التساؤل والدهشة :

الفيلسوف والعالم والباحث عن العلم إنسان شديد الذكاء يستثير حيرته ما يراه في الطبيعة من غموض ، فيتساءل كل منهما عن الحقيقة التي تكمن وراء هذا الغموض ، مع افتراض أن الحقيقة موجودة وأن المعرفة ممكنة وأن قدرات الإنسان كفيلة بتحصيلها ، وأنه لا يهدأ للإنسان بال إلا بذلك ؛ لأنها غاية العقل ووظيفته وجوهرة [(٢)].

(ب) الشك والحيرة :

فالباحث أو المفكر عالماً كان أو فيلسوفاً لا يقتنع عقليا إلا إذا وجد تفسير لما يحيره من ظواهر الوجود بحيث يجعله هذا التفسير قادرا على فهم النظام الكوني وفق النظام العقلي الذي يسمح له بعقد صلة بين النظامين ، تجعل من الممكن أن تنسجم هذه الصلة مع الصورة التي كونها كل الباحثين عن النسق العام للوجود.

---

(١) انظر : مقدمة في الفلسفة العامة د. محمد الأنور السنهوتي صـ ٢٦ . مكتبة الزهراء ، أسس الفلسفة . د . توفيق الطويل صـ ١٧٠ . مصادر وتيارات الفلسفة المعاصرة في فرنسا . ج . بنروبي صـ ١ . ترجمة د. عبد الرحمن بدوي . مراجعة . د . محمد ثابت الفندي . نشر مكتبة الأنجلو ط ١٩٦٤ .

(٢) دراسات في الفلسفة اليونانية . د . جمال شلبي صـ ٥٠ .

(جـ) الإخلاص للحقيقة والتأني والمثابرة :

وأمارة ذلك سقراط حيث يقول على لسان أفلاطون في محاورة الدفاع : لقد بذلت عمري كله لكي أردكم آيها الأثينيون إلى جادة الحق ، ولو كنت قد أقضيتكم أجراً على ذلك لكان لكم عذركم ، ولكن حسبي بالفقر شاهدا ، لقد كنتم أيام الحصار تتنافسون في البحث عن الأقوات والمشارب اللذيذة ، أما أنا فقد كانت كل ملذاتي هي تقليب الأفكار في ذهني .

وعاش أكثر الفلاسفة لا بالفلسفة بل من أجل الفلسفة وفي العلم أمثلة كثيرة على هذا الإخلاص النادر للبحث عن الحقيقة والتفاني في سبيلها.

ومن هنا فإن المفكر يعشق الحقيقة لدرجة أنه يكرس لها كل حياته راضيا سعيدا ولهذا فإنه لا يتسرع ولا يرضى بالحلول القريبة ... بل بالتي يقتنع بها عقله الناقد بعد عناء ومكابدة .

(د) الحرية :

ولها معان كثيرة منها أن يتحرر الباحث عالما وفيلسوفا من الأفكار السابقة فلا يتمسك بها ويجعلها تقيد بحثه أو تميل به نحو تأييد هذه الأفكار قبل التأكد من صدقها ، وأن يتحرر أيضا من المغريات العاجلة مثل المال والشهرة والمناصب التي يلزم كل منهما أن يزهد فيها من أجل الوصول إلى الحقيقة [١].

وأن يتحررا أيضا من الخوف وخاصة من السلطة ، ومن الأمثلة المشهورة " لويس باستيو " الكيميائي الفرنسي الذي أبطل النظريات القديمة على أسباب الأمراض وأعلن أن سبب الأمراض هي الميكروبات ، فأثار اعتراضات الأطباء والعلماء واتهموه بالجنون

(١) انظر : تدريس العلوم الفلسفية صـ ٢٠٢ ، انظر موجز تاريخ الفلسفة صـ ٣٧ ـ ١٠٤٠ الجمهورية العربية اليمنية .

وتحداه أحدهم أن يحقنه بمكروب فلم يتأثر بالمرض فزادت سخرية الأطباء وتهكمت عليه الصحف ، ولكن هذا الحادث جعله يفطن إلى أن المكروب الذي حقن به العالم المتحدى كان قد ضعف إلى حد الموت فاستنتج من ذلك أن الميكروب الميت لا يحدث المرض بل يعطى مناعة ضده [١].

وعلي الرغم من وجود هذا التشابه بين العلم والفلسفة إلا أنهما مختلفان في المنهج والموضوع ، وبوسعنا أن نجمل أوجه الخلاف بينهما فيما يلي :-

١- غاية العلم وصف الحقائق والكشف عن قوانين الظواهر ، أما الفلسفة فإنها تحاول تفسير ما تصل إليه العلوم من نتائج عن هذه الحقائق وبذلك يتسم العلم بالوصف والفلسفة بالتفسير ، ثم يقوم العقل الفلسفي بالتأليف بين النظريات العامة للوصول إلى نظرية عامة يفسر بها الكون ... والفلسفة على هذا النحو تعد نوعا من المنطق السامي الذي يختبر كمال الوصف العلمي للظواهر ، وتكتفي بالنظر في المفاهيم العامة كمفهوم العلة والزمان والمكان والمادة ثم ينظر أيضاً في مناهج العلوم وصور التفكير العلمي والفلسفة على هذا النحو تعد نوعا من المنطق السامي الذي يعتبر كمال الوصف العلمي للظواهر [٢].

٢- ينزع العلم إلى التكميم بمعنى تحويل الكيفية إلى مقادير كمية فالضوء راجع إلى طول الموجات أو قصرها ، والصوت إلى سعة الذبذبات ... الخ . ومن ثم تتحقق الدقة المنشودة في البحث العلمي .

---

(١) نفس المصدر صـ ٢٠٣ ، انظر : دراسات في الفلسفة اليونانية. د/ جمال شلبي صـ ٥٠ ـ ٥١ (بدون) ، أسس الفلسفة د/ توفيق الطويل صـ ٢١٧.

(٢) انظر: الفلسفة ومباحثها د/ محمد أبو ريان صـ ١٠٤ دار المعارف ط ٤.

أما الفلسفة فتحرص على الاحتفاظ بالخصائص الكيفية للظواهر وتصفها كما تصف علاقة الإنسان بها . ولذلك فإن الفلسفة لها فضل تنبيه العلماء إلى عدم إهمال الكيفيات لأنها تعبر عن الواقع أكثر من عالم الكم المصطنع[١] .

٣- العلم ينتقل من الموضوع إلى الموضوع دون تدخل الذات ، أما في ميدان الفلسفة فنحن ننتقل من الموضوع أي من العالم الخارجي إلى الذات ، ثم نتجه إلى العالم الخارجي من خلال الذات ، فالخلوة إلى الذات شرط التفلسف [٢].

٤- الفلسفة هي علم الوجود الكلي موضوعها الكون وظواهره ومركز الإنسان فيه على وجه كلي شامل . أما العلم فإنه يتخصص في بعض الظواهر الخاصة في الكون ، فعلم الطبيعة على سبيل المثال يبحث في تركيب الأشياء وردها إلى عناصرها ، وعلم الحياة يبحث في خصائص الكائن الحي ... الخ [٣].

٥- إن العلم يبحث عن العلل القريبة للظواهر بينما تبحث الفلسفة عن العلل البعيدة للظواهر ، وليس معني العلل البعيدة أنها العلل المشهورة الغامضة فالمقصود العلل التي تتعدى الميدان العلمي [٤].

ورغم هذه العلاقة الوثيقة بين الأم والابن والعطاء الذي قدم له إلا أن الابن تمرد بعد انفصاله عن الفلسفة وخاصة بعد انتصار المنهج التجريبي ونحن لا ننكر ما حققه العلم من انتصارات باهرة ملموسة يمتد أثرها إلى كل فرد من هذه المعمورة ، ولكن عليه أن لا يتطاول بالطعن على الفلسفة ويرعى أنها مجموعة مشكلات لا حاجة للفكر الإنساني إليها والاعتراض على مجرد حق وجودها أو استمرارها .

---

(١) انظر: مقدمة في الفلسفة العامة ، د/ يحيى هويدى صـ ٥٢.
(٢) انظر: الفلسفة ومباحثها د/ محمد أبو ريان صـ ١٠٥.
(٣) انظر: مقدمة في الفلسفة العامة د/ يحيى هويدى صـ ٥١ .
(٤) نفس المصدر صـ ٥٣.

ثانياً : علاقة الفلسفة بعلم الأخلاق

من المعلوم أن الأخلاق فرع من الفلسفة ، بل إن علوم الأخلاق تمثل أهم ميادين الفلسفة ، فالعلوم الأخلاقية وكذا المذاهب والنظريات المختصة بدراسة الفضائل والقيم تدخل في الإطار العلمي للفلسفة ومعنى هذا أن الأخلاق من هذه الزاوية تعبر عن فلسفة عملية .

فعلم الأخلاق يدخل ضمن تصانيف الفلسفة ، فالفلسفة تنقسم إلى قسمين نظرية وعملية:

فالفلسفة النظرية : تبحث في الله والعقل والعالم التي تنقسم بدورها إلى العلم الإلهي وعلم النفس والعلم الطبيعي وتستند هذه العلوم الجزئية النظرية إلى علم أساسي هو علم البحث في الوجود " الأنطولوجيا "

أما الفلسفة العلمية : فتنقسم إلى علوم الأخلاق والاقتصاد والسياسة وتبحث على التوالي في الإنسان من حيث هو فرد ، والإنسان من حيث هو عضو في أسرة ، ثم من حيث هو فرد في أمة ، وتستند هذه العلوم أيضاً إلى علم أساسي هو الفلسفة العملية العامة [1].

ومعنى هذا أن الأخلاق واقعة في دائرة الفلسفة العلمية ، وقد اتضح ذلك أكثر في حضارات الشرقيين القدماء ، حيث يخبرنا تاريخ الحياة العقلية بأن كثيراً من الأمم ذوات الحضارات في الشرق القديم ، فقد كانت لها فلسفاتها التي انطوت عليها دياناتها وقد كانت هذه الفلسفات بمثابة المرآة التي تتجلى على صفحتها المعاني الفلسفية

---

(١) انظر : المدخل إلى الفلسفة . أزفلد كولبه صـ ١٩.

والروحية والخلقية [1]. ومن أهدافها أنها ترمي إلى تصفية النفوس من الناحية الروحية ، وإلي القلوب من الناحية الخلقية.

وبناء على ذلك فإن الأخلاق وهي تمثل نمطاً عملياً للفلسفة مهمتها البحث العلمي في الحياة الخلقية وقوانينها ، وتحديد الشروط الواجب توافرها في كل عمل يصلح أن يكون موضوعاً للحكم الخلقي[2].

وعلى ذلك فالأخلاق جزء من الفلسفة الإنسانية ، وعلاقة الأخلاق بالفلسفة علاقة الجزء بالكل ، وإذا تقرر أن الأخلاق جزء من الفلسفة الإنسانية فإنما نقصد بالفلسفة الإنسانية كل ما يتعلق بطبيعة الإنسان ، وأيضاً فيما يتعلق بعلم القانون والمنطق ، والجمال ، وهذه العلوم من حيث إنها تمثل ميداناً رحباً لقضايا الفلسفة فإن علم الأخلاق يتصل بها جميعها .

إذن ملتقى هذه العلوم مع الأخلاق يكون من حيث إنها تمثل ما يعرف بالفلسفة الإنسانية والتي تدور بحوثها حول الإنسان من نواحيه النفسية والسلوكية والفكرية وتشمل هذه الفلسفة علم كالنفس والأخلاق والمنطق [3].

وهذا إن دل فإنما يدل على أن الفلسفة الإنسانية هي ما يقوم به المرء منصرفاً إلى تدبير أمور حياته العلمية ، ومعالجة مشاكله اليومية الجارية مثل أمور معاشه ومعاملاته وعلاقاته مع التغير [4].

---

(١) انظر : مقال عن المنهج رينية ديكارت صـ ٥ . ترجمة محمود محمد الخضيرى . مراجعة د. محمد مصطفي حلمى . الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٥.

(٢) أنظر : المدخل إلى الفلسفة . أزفلد كولبه صـ ١٥ .

(٣) مباحث في الأخلاق . د. محمود عبد المعطى بركات صـ ٢٧ . دار الهدى للطباعة القاهرة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م .

(٤) انظر : مقدمة في الفلسفة د. يحيى هويدى . صـ ٢٦.

ثالثاً: علاقة الفلسفة بعلم الكلام

موضوع علم الكلام هو البحث في ذات الله تعالى من حيث اتصافها بصفات الكمال المختلفة ، وذات رسله من حيث ما يجب وما يستحيل وما يجوز في حقهم عليهم السلام ، والسمعيات من حيث وجوب الإيمان بها والتصديق بها .

وقد عرفه العلماء بأنه " ملكة يقتدر بها الإنسان على نصرة الآراء والأفعال المحددة التي صرح بها واضع الملة ، وتزييف كل ما خالفها بالأقاويل "[١].

ويتحدث " ابن خلدون " عن وظيفة علم الكلام فيرى بأنه علم يتم من خلاله " الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية ، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف ، وأهل السنة وسر هذه العقائد الإيمانية التوحيد "[٢].

ومن خلال ما سبق عرضه يتضح لنا أن علم الكلام يختص بدراسة أمور العقيدة . بخلاف الفلسفة التي تبحث في أمور العقل هذا من ناحية ، ومن ناحية أخري فعلم الكلام خاص بدين معين ، أما الفلسفة فهي باحثه عن الحقيقة على وجه العموم .

ويتحدث " ابن خلدون " مبيناً جوانب استدلال المتكلم والفيلسوف فيقول : " أعلم أن المتكلمين يستدلون في أكثر أحوالهم بالكائنات وأحوالها على وجود الباري وصفاته ، وهو نوع استدلالهم غالباً ، والجسم الطبيعي ينظر فيه الفيلسوف في الطبيعيات وهو بعض من هذه الكائنات ، إلا أن نظره فيها مخالف لنظر المتكلم ، فهو ينظر في الجسم من حيث يتحرك ويسكن والمتكلم ينظر فيه من حيث يدل على الفاعل ، وكذا نظر الفيلسوف في الإلهيات إنما هو نظر في

---

(١) احصاء العلوم : للفارابي . صححه د/ عثمان أمين صـ ٧١. مطبعة الخانجي ١٣٥٠هـ - ١٩٣١م.
(٢) مقدمة ابن خلدون . ص ٣٢١ دار ابن خلدون بالإسكندرية .

الوجود المطلق وما يقتضيه لذاته ، ونظر المتكلم في الوجود من حيث إنه يدل على الموجود" [١].

ومعنى هذا أن ما يذكره المتكلم من إقامة الحجج ليس بحثاً عن الحقيقة فيها فالتعليل بالدليل من شأن الفلسفة وليس من شأن علم الكلام الذي يعمل المتكلم فيه ليدعم عقائده الدينية من ناحية ويرد عنها شبه المارقين من ناحية أخري .

ويذكر " الإيجى " الفرق بينهما في عبارة موجزة وصريحة فيقول : إن البحث في الكلام يكون على مقتضى العقول وافق الشرع أو خالفه [٢].

ويذكر الدكتور محمد على أبو ريان : " إن المتكلم يبدأ من قاعدة معترف بها ، ثم يتلمس الطرق التي تؤدي إلى إثبات هذه القاعدة ، أما الفيلسوف فإنه يبدأ من درجة الصفر أي من قواعد المنطق الأساسية والمقدمات البدهية ويتدرج منها إلى النتائج مستخدماً منهجاً عقلياً صرفاً " [٣].

وإذا كان الأمر على هذا النحو فأي المنهجين أصوب؟

يستطيع الباحث أن يدرك دون كبير عناء أن منهج المتكلم أصوب وأكثر أمناً واطمئناناً من منهج الفيلسوف وذلك لما يلي :-

١- أن المتكلم يبحث عن الحق الذي وقف عليه من طريق الشرع لكنه يبحث عنه ليدعم ما وقف عليه ، أو يرد عنه شبه أثيرت حوله بخلاف الفيلسوف فهو يكتفي بما وصل إليه عن طريقه ويطمئن إليه بغض النظر عن مطابقته للشرع أو تعارضه معه .

---

(١) نفس المصدر صـ ٣٢٧ .
(٢) انظر : المواقف بشرح الشريف الجرجانى ط صـ ٣١ . دار الطباعة العامرة . ١٣١١هـ .
(٣) تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام د. محمد أبو ريان صـ ٢٤٤ . دار المعرفة الجامعية . ط ٤ . ١٩٨٠م .

٢ـ " أن الفكر والنظر العقلي المستقل غير مأمون العواقب ، إذ كثيراً ما ينحرف العقل عن جادة الصواب بسبب وقوع خطأ في المقدمات التي يستعملها في بداهيته أو بسبب المرض أو الخداع أو غير ذلك " [١].

وفي هذا يقول **صاحب المقاصد** : " اعلم أن للإنسان قوة نظرية كمالها معرفة الحقائق كما هي ، وعملية كما لها القيام بالأمور على ما ينبغي تحصيلاً لسعادة الدارين ، وقد تطابقت الملة والفلسفة على الاعتناء بتكميل النفوس البشرية في القوتين وتسهيل طريق الوصول إلى الغايتين ، إلا أن نظر العقل يتبع في الملة هداه وفي الفلسفة هواه " [٢].

على أنه وإن كان المتأخرون من علماء الكلام قد خلطوا الفلسفة به إلا أنه مع ذلك فقد بقى هناك فروق جوهرية بين علم الكلام والفلسفة على حد تعبير الأستاذ الدكتور : عبد الله الشاذلي ويمكن إيجازها ؟ فيما يلي :

أولاً : أن علماء الكلام غير المشبهة قد اختلفوا في المسائل الإلهية عن الفلاسفة حيث اقتربت إلهيات المتكلمين من الدين ، ودنت إلهيات الفلاسفة من الوهم والتخيل أو مقتضيات العقل وحده.

ثانياً : أقر المتكلمون بالنبوة على وجود ديني . وحكمت الفلاسفة عليها بالتصورات العقلية ، والمعاد عند المتكلمين حسي بينما عند الفلاسفة روحي .

---

(١) حول مبادئ وتاريخ علم العقيدة الإسلامية . د. الطنطاوى فراج صـ ١٠٢ . الدار الإسلامية للطباعة بالمنصورة ط ١٤٢٢هـ- ٢٠٠٢م

(٢) شرح المقاصد للتفتازانى جـ ١ صـ ١٧٢ ــ ١٧٣ تحقيق د/ عبد الرحمن عميره . نشر مكتبة الكليات الأزهرية .

ثالثاً : بالنسبة لمشكلة الخلق لا يتصور الفلاسفة بالنسبة لمشكلة الخلق صدور الكثرة عن الواحد ، واخترعوا وسائط بين الحق والخلق أما المتكلمون فيقولون بصدور الخلق عن الله مباشرة [١].

وفيما يلي عرض موجز للعلاقة بين الفلسفة وعلم الكلام :

أولاً : أن المتكلم يؤمن قبل التعقل ليرى ما آمن به من قبل فينظر في المتناهي كي يدرك صورة اللامتناهي ، وينظر في المتغير ليرى الثابت وينظر في المخلوق ليرى صورة الخالق جل شأنه.

أما الفيلسوف فإن العقل عنده هو كل شيء فما يجوزه العقل ويبرهن عليه يؤمن به ، وما يعجز العقل عن البرهنة عليه يرفضه الفيلسوف .

ثانياً : المتكلم يدور بحثه الرئيسي حول الألوهية والفيلسوف يبحث في الإلهيات كجزء من بحث يشمل موضوعات أخرى ، وقد ينتهي الفيلسوف إلى إثبات علة أولى للعالم أو عدة علل ليست هي بالتحديد الله.

ثالثاً : المتكلم مؤمن يريد أن يعقل ، أما الفيلسوف فهو يعقل لكي يؤمن أو لا يؤمن .

رابعاً: الحقيقة عند الفيلسوف موضوعية يمكن لأي فرد أن يدركها ويستدل عليها . والحقيقة عند المتكلم مسائل أصولية ثابتة كالإيمان بوجود الله والملائكة والرسل والبعث والوحي وغير ذلك من مسائل الدين . ولكنه يستدل بالعقل عليها لدعمها وتأكيدها [٢].

---

(١) الألوهية في الفكر الإسلامي . د. عبد الله الشاذلي . صـ ٢٨ (بدون)
(٢) انظر : دراسات في علم الكلام د. أحمد عبد الوهاب صـ ٢٤ ، مكتبة الأزهر الحديثة ط ١ ١٩٩٣.

رابعاً : العلاقة بين الفلسفة والدين

" *تمهيد* "

إذا كان الترتيب المنهجي للبحث أن يبدأ الباحث بتعريف مفردات بحثه فإنه لابد من تقديم تعريفاً للفلسفة والدين .

أما الفلسفة فقد سبق الحديث عن تعريفاتها . وأما الدين فله عدة تعريفات أعرض لها في السطور التالية . وقبل استعراض هذه التعريفات أشير إلى أن المقصود هنا الدين بمعناه العام . فقد عرف الدين بأنه : مجموعة عبادات ومعتقدات مقدسة يؤمن بها جماعة معينة لسد حاجة الفرد والمجتمع على السواء . أساسه الوجدان وللعقل فيه مجال (١).

وقيل هو : الشعور بواجباتنا من حيث كونها قائمة على أوامر إلهية .

ويذكر الأب " شاتل " أن الدين هو مجموعة واجبات المخلوق نحو الخالق : واجبات الإنسان نحو الله ، وواجباته نحو الجماعة ، وواجباته نحو نفسه .

أما " ماكس ميلر " فيعرفه بأنه : هو محاولة تصور ما لا يمكن تصوره ، والتعبير عما لا يمكن التعبير عنه ، هو التطلع اللانهائي ، هو حب الله .

أما " تايلور " فيذكر أن الدين هو الإيمان بكائنات روحية (٢).

---

(١) انظر : والمعجم الفلسفي ، مجمع اللغة العربية صـ ٨٦ ، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١٩٧٩ القاهرة .

(٢) انظر : الدين ، د. محمد دراز صـ ٢٩ – ٣١.(بدون) .

هذا عن تصور الغربيين للدين نلاحظ عليها القصور . فقد ركزت على جانب و أغفلت جوانب أخرى من جوانب الدين التي تمثل أهمية بالغة بالنسبة للدين ، وتعد من مقوماته بمعناه الصحيح .

أما في التصور الإسلامي فإننا نجد له تعريفات متعددة يعد أشملها وأكثرها وضوحاً ، ووفاء بمتطلبات الدين ما قدمه الدكتور " دراز " لذا سأقتصر عليه فهو يقول : الدين يعني " الإيمان بذات إلهية جديرة بالطاعة والعبادة هذا إذا نظرنا إلى الدين من حيث هو حالة نفسيه بمعنى التدين . أما إذا نظرنا إليه من حيث هو حقيقة خارجة فنقول : هو جملة النواميس النظرية التي تحدد صفات تلك القوة الإلهية ، وجملة القواعد العلمية التي ترسم طريق عبادتها[1].

وبهذا التعريف نجد أن الدين الحق الصحيح لا نجده متحققا إلا في الإسلام ، والمسلم يعرف أن الدين هو الاستسلام لله وحده .

سبق الدين للفلسفة :

الدين أسبق من الفلسفة ، هذه حقيقة لا يتطرق إليها شك ، وقد سجل هذه الحقيقة كثير من الباحثين وعبر عنها " لاروس " في معجمه فيقول : " إن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية ، حتى أشدها همجية ، وأقربها إلى الحياة الحيوانية ... وإن الاهتمام بالمعني الإلهي وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية "[2]. فالدين سابق الفلسفة وأصل لها .

" ولقد برهن كثير من الباحثين بما لا يدع مجالا للشك على أن الفلسفة اليونانية . وهي الفلسفة الأم التي تعد مصدراً للفكر الإنساني الشامل المنظم لم تخرج كثيراً عن الأفكار البدائية التي حددتها المادة الأولية الأساسية الموروثة عن الدين ، ذلك أن فلاسفة

(١) انظر : المصدر السابق صـ ٢٩ – ٣١ .
(٢) الدين . د. محمد دراز صـ ٨٤ .

اليونان كانوا يمارسون نشاطهم العقلي حول هذه المادة الدينية الهائلة المنحدرة إليهم من العصور السابقة دون أن يبتكروا وسائل تصورية جديدة إذ إنهم اكتشفوا تلك الوسائل عن طريق التحليل الدقيق والمتميز والتنسيق بين العناصر المختلطة في هذا التراث الديني ، ولذا بدت فلسفتهم وكأنها شرح وتحليل وتوضيح وتعليل للمواريث الدينية " [1].

ومن ثم يمكن القول : " إن الفلسفة هي بنت الدين وأم العلم من حيث أن الدين هو الذي مهد لها في حين أنها هي التي أنتجت العلم "[2].

وقصارى القول في هذا : أن الأبحاث العلمية والتاريخية قد أكدت على أسبقية الدين للفلسفة ، لأن المتعذر وجود جماعات بشرية دون علوم أو فنون لكن يتعذر وجودها بدون دين تعتنقه سواء كان حقاً أم باطلاً والدليل على ذلك أن الديانات القديمة وما أثير فيها من موضوعات هو الذي مهد لظهور الفلسفة .

وقبل أن نتعرض للعلاقة بين الفلسفة والدين [3]من حيث بعض موضوعاتها أو غايتها لابد لنا أن نتساءل هل يغني العقل عن الوحي ؟ أم أن الوحي يأتي بما لا يستطيع العقل أن يصل إليه ؟ وقد أجاب أبو حيان التوحيدي على هذا السؤال قائلاً : لو كان العقل يكتفي به لم يكن للوحي فائدة ولا غناء . على أن منازل الناس متفاوتة في العقل وأنصبتهم مختلفة فيه ، فلو كنا نستغني عن الوحي

---

(١) مدخل إلى الفلسفة . د. أحمد رمضان صـ ٢٠١ ـ ٢٠٢ .
(٢) تمهيد للفلسفة . د . محمود زقزوق صـ ٧٨.
(٣) المقصود بالدين هنا الدين الحق والفلسفة يقصد بها كذلك الفلسفة الحقة التي لا تعارض الدين ولا تناقضه

بالعقل كيف كنا نصنع ، وليس العقل بأسره بواحد منا ، وإنما هو لجميع الناس ، وهو وحده لا يفي بجميع الصناعات والمعارف [1].

والذي يستفاد من نص " أبي حيان " أن الدين الموحي به يوجد فيه ما يرضي سائر البشر خواصهم وعوامهم بخلاف النظر العقلي فإنه ينعدم فيه ما يتفق وكافة البشر من حيث قواهم العقلية . إذ الفلسفة بحث نظري وتأمل عقلي والدين وجود حقيقي ومن خطأ الرأي أن نتصور أن العقل يكتفي به عن الدين أو أن نزج بمسائل الدين في الفلسفة لتستبدل بها آراء نظرية .

والمتأمل في العلاقة بين الفلسفة والدين يجد أن العلاقة بين الفلسفة والدين من الناحية التاريخية مرت بثلاثة مراحل وفقا لعصور تاريخية ثلاث على النحو التالي :-

أولاً :عند اليونان :

ارتبطت الفلسفة بالدين ارتباطا قويا منذ فجر التاريخ ، حتى لقد قيل : إن كل محاولة تهدف إلى الفصل التام بينهما لا محالة إلى العجز عن فهم كليهما ، فالديانة المصرية القديمة والبابلية والفارسية كانت لها أراء خاصة في تفسير الكون والإنسان وما بينهما من علاقة .

كذلك كانت الديانة اليونانية وهي ديانة تقوم على أساس تعدد الآلهة ، بحيث يكون لكل إله جزء خاص من الكون يسيطر عليه ، ويحركه بمشيئته ، وكان لهذه الديانة أيضاً تفسيرات خاصة للكون وللإنسان والعلاقة بينهما .

---

(١) انظر : المقابسات . أبو حيان التوحيدى . تحقيق حسن السندوبي صـ ٤٩ ـ ٥٠ دار السعاد الصباح ط ٢ ١٩٩٢م .

والقول بتعدد الآلهة – عند اليونان – لم يعرقل حرية التفكير الفلسفي ولم تكن التفسيرات الدينية السائدة للكون والإنسان حائلاً أو عقبة أمام التفكير في سبيل البحث عن تفسيرات جديدة .

ومن هنا فقد آمن فلاسفة اليونان بقدرة العقل ، وكانوا يواجهون كثيرا من المشكلات الدينية بالأدلة المنطقية والبراهين العقلية وكانوا ينتقدون العقائد الشعبية مستبدلين بها معارف أخري في الألوهية والنفس الإنسانية . فلم يضع فلاسفة اليونان أي حد أمام العقل في الحكم على صفات الإلهية وأعمالهم وعلاقتهم بالناس .

ثانياً : في العصور الوسطي المسيحية :

ساد الفكر الديني طوال العصر الوسيط ، وكانت الفكرة السائدة في هذه الفترة : هي أنه ليس في وسع العقل وحدة أن يصل إلى جميع الحقائق بل هناك مجموعه من الحقائق لا نصل إليها إلا عن طريق الوحي مهما كان من دقة العقل ، وصحة برهانه .

وعلي ذلك كانت الحقائق الدينية هي نقطة البداية التي يبدأ منها الفلاسفة في العصر الوسيط ، ويستخدمون العقل في محاولة البرهنة والتدليل على هذه الحقائق . كما فعل " القديس أنسلم " الذي رأى أن في العقل قدرة على البرهنة على كثير من المسائل الدينية أما القديس " توما الأكويتي " فقد ذهب إلى أن العقل والوحي وسيلتان من وسائل المعرفة ، وهما قد صدرا عن أصل واحد ؛ فإن الله هو الذي أودع العقل في الإنسان ، وهو الذي أعلن للناس حقائق الوحي .

ولما كانت الحقيقة لا يمكن أن تتعارض مع الحقيقة ؛ لأن القضيتين المتناقضتين لابد أن تكون واحدة منها صادقة بالضرورة والأخرى كاذبة بالضرورة ، فإن الحقيقة لابد أن تكون واحدة ، ومن ثم فإن العقل والإيمان يؤديان إلى حقيقة واحدة .

لكن الإنسان لا يستطيع أن يصل عن طريق العقل وحده إلى كافة الحقائق الدينية ومن هنا فلابد أن يضاف الوحي إلى العقل ، حتى يتمكن الإنسان من إدراك الأسرار الفائقة للعقل .

ويمكن أن نقول باختصار : إن الفكرة التي سادت العصور الوسطى هي تلك الفكرة التي تنادي : بعجز العقل البشري وحده – وبغير نور الإيمان - عن الإحاطة بكثير من مسائل ما بعد الطبيعة .

ومن هنا خضعت الفلسفة للدين (أو العقل للنقل) خضوعا تاما في القرن الثالث عشر الميلادي ، وانتشرت العبارة المشهورة التي تقول إن الفلسفة إن هي إلا خادمة لعلم اللاهوت ، أو تابعة له .

أما في العالم الإسلامي : فقد كان هناك ثلاثة تيارات :–

الأول : تيار المتكلمين وهم في رأي البعض فلاسفة الإسلام الحقيقيون ، وقد اعتزوا بالعقل لا سيما المعتزلة .

الثاني : هو تيار أهل السنة الذين التزموا بالوحي .

الثالث : تيار الفلاسفة الذين قاموا بمحاولة للتوفيق بين الحكمة والشريعة أو الدين والفلسفة .

ثالثاً : في العصور الحديثة :

أما في العصور الحديثة ، فقد استقلت الفلسفة عن اللاهوت ، وعادت إلى الاعتزاز بالعقل ، فذهب" ديكارت " إلى القول بأنه ينبغي ألا أقبل شيئا ما على أنه حق إلا إذا ظهر أمام عقلي في جلاء وتميز ، بحيث لا يكون لدي أي مجال لوضعه موضع الشك .

أما " كانط " فقد فصل فصلاً تاماً بين الدين والفلسفة رأي أن المحاولات التي تبذل لاستخدام العقل في دائرة اللاهوت محاولة عقيمة .

أما " هيجل " فقد قام بوضع الدين جنبا إلى جنب على الدين وقرر أنه فن داخلي يصور لنا حقيقة الإله من الداخل [1] .

ونستطيع أن ندرك العلاقة القوية بين الفلسفة والدين إذا نظرنا إلى الغاية من كل منهما . فكل من الفلسفة والدين هدفهما : إصلاح النفس البشرية وتهذيبها ، وذلك بحملها على التحلي بالفضائل والتمسك بالقيم التي تؤدي إلى الصلاح في الحال والمآل .

يقوم ابن حزم :

الفلسفة على الحقيقة إنما معناها وثمرتها الغرض المقصود بتعلمها ، ليس هو شيئا غير إصلاح النفس بأن نستعمل في دنياها الفضائل ، وحسن السيرة المؤدية إلى سلامتها في المعاد ، وحسن السياسة للمنزل والرعية ، وهذا نفسه لا غيره هو الغرض في الشريعة . هذا مالا خلاف فيه بين أحد من العلماء بالفلسفة ، ولا بين أحد من العلماء بالشريعة [2] .

فـ " ابن حزم " يقرر اتفاق علماء الشرع وحكماء الفلسفة على أن إصلاح النفس . وحثها على الفضائل وسلامة سلوكها وسيرتها هو غاية عامة لدي علماء الشعر والفلسفة وأكد هذا المعني " الإمام الشهرستاني " بقوله : لما كانت السعادة هي المطلوبة لذاتها . وإنما يكدح الإنسان لنيلها ، والوصول إليها ، وهي لا تنال إلا بالحكمة . فالحكمة تطلب إما ليعمل بها ، وإما لتعلم فقط ، فانقسمت الحكمة إلى قسمين : عملي وعلمي ثم منهم من قدم العملي على العلمي ومنهم من أخر فالقسم العملي هو عمل الخير والقسم العلمي هو علم الحق .

---

(١) انظر : مدخل إلى الفلسفة . د / إمام عبد الفتاح صـ ١١٣- ١١٨ ماهي الفلسفة . د / حسين على صـ ٨٤ - ١٠٣ . دار قباء للطباعة .

(٢) انظر : الفصل في الملل والأهواء والنحل . ابن حزم . جـ ١ صـ ١٧١ مطبعة عكاظ. ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

ثم يقارن " الشهرستاني " بين إمداد الحكماء والأنبياء فيقول : الأنبياء أيدوا بإمدادات روحانية لتقرير القسم العملي ، ولطرف ما من القسم العلمي ، والحكماء تعرضوا لإمدادات عقلية تقريرا للقسم العلمي ، والطرف ما من القسم العملي . فغاية الحكيم هو أن يتجلى لعقله كل الكون ويتشبه بالإله الحق بغاية الإمكان . وغاية النبي أن يتجلى له نظام الكون فيقدر على ذلك مصالح العامة حتى يبقي نظام العالم ، وتنظم مصالح العباد : وذلك لا يتأتى إلا بترغيب وترهيب وتشكيل وتخييل فكل ما ورد به أصحاب الشرائع والملل مقدر على ما ذكرناه عند الفلاسفة إلا من أخذ علمه من مشكاة النبوة ؛ فإنه ربما بلغ إلى حد التعظيم لهم ، وحسن الاعتقاد في كمال درجتهم [١] .

والذي يستفاد من نص " الشهرستاني " :

أن السعادة غاية يسعى إليها الإنسان ، وأنها تنال بالمشقة ، والحصول عليها بعمل الخير والعلم بالحق تعالى ، وقد أكد الأنبياء طريق السعادة بالعمل والعلم بينما رأي الحكماء الوصول إلى السعادة بالنظر العقلي أولا ، مع الإلمام بطرف ما من العمل ، فغاية الفيلسوف البحث بعقله في نواحي الكون ، وغاية النبي تقدير مصالح العباد بطريق الترغيب والترهيب [٢].

ويؤكد " الفارابي " توافق غاية الدين والفلسفة فيقول : " فالملة محاكية للفلسفة عند هم . وهما تشتملان على موضوعات بأعيانهما ، وكلاهما تعطي المبادئ القصوى للموجودات فإنهما يعطيان على المبدأ الأول ، والسبب الأول للموجودات ، وتعطيان

---

(١) انظر : الملل والنحل . للشهرستاني . تحقيق أمير مهنا وزميله . جـ ٢ صـ ٧٣١ ـ ٣٧٢ . ط ٥ ـ ١٤١٦هـ ١٩٩٦م .

(٢) انظر : محاضرات في الفلسفة العامة . د/ أحمد عبد الوهاب صـ٤٥.

الغاية القصوى التي لأجلها كون الإنسان ، وهي السعادة القصوى ، والغاية القصوى في كل واحد من الموجودات الآخر .

وكل ما تعطيه الفلسفة فيه البراهين اليقينية فإن الملة تعطي فيه الاقناعات والفلسفة تتقدم بالزمان الملة [١].

ويري ابن سينا : أن بين الدين والفلسفة فرقا آخر ، هو أن وجهة الدين عملية أصالة ، ووجهة الفلسفة بالأصالة نظرية ويقول في هذا المعنى : مبدأ الحكمة العملية مستفاد من جهة الشريعة الإلهية ، وكمالات حدودها تبين بها وتتصرف فيها بعد ذلك القوة النظرية من البشر بمعرفة القوتين ، واستعمالها في الجزئيات ومبادئ الحكمة النظرية مستفاد من أرباب الملة الإلهية على سبيل التنبيه ومتصرف على تحصيلها بالكمال بالقوة العقلية على سبيل الحجة [٢] .

وذهب ابن رشد إلى هذا المعنى حين قال : " وينبغي أن تعلم أن مقصود الشرع إنما هو تعليم العلم الحق ، والعمل الحق والعلم الحق : هو معرفة الله تعالى وسائر الموجودات على ما هي عليه ، وبخاصة الشريفة منها ، ومعرفة السعادة الأخروية ، والشقاء الأخروي . والعمل الحق هو : امتثال الأفعال التي تفيد السعادة ، وتجنب الأفعال التي تقيد الشقاء ، والمعرفة بهذه الأفعال هو الذي يسمي بالعلم العملي " [٣].

والذي يستفاد من نصوص الفلاسفة: وجود تشابه بين غاية الدين والفلسفة . فكلاهما يهدف إلى تحقيق السعادة عن طريق اعتقاد

---

(١) تحصيل السعادة للفارابي صـ ٤٠- ٤١ ـ دار المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن صـ ١٣٤٥هـ - نقلا عن التمهيد للفلسفة الشيخ ـ مصطفى عبد الرازق صـ ٧٨ .

(٢) التمهيد لتاريخ الفلسفة صـ ٧٩.

(٣) فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال . ابن رشد . تحقيق . د. محمد عماره صـ ٥٤. دار المعارف ط ٣

الحق وعمل الخير . ومنشأ ذلك هو معرفة الله تعالى ، وامتثال الأفعال التي تؤدي إلى السعادة ، وتجنب الأفعال التي تدفع الإنسان إلى الهلاك .

وعلى ذلك يمكن القول : بأن غاية الدين هي النجاة في الدنيا والآخرة . وأن غاية الفلسفة هي السعادة وقد ارتبطت الفلسفة منذ نشأتها بالدين ، وخرجت من المعابد والكنائس واشتغل بها رجال الدين . وتطورت الفلسفة تطورا طبيعيا مع الدين لهذا نجد " ابن رشد " يقرر توافق الشريعة والفلسفة فيقول : " إن الحكمة هي صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة فالأذية ممن ينسب إليها أشد الأذية مع ما يقع بينهما من العدواة والبغضاء والمشاجرة وهما المصطحبتان بالطبع المتحابتان بالجوهرة والغريزة " [(١)] .

فغاية الدين والفلسفة واحدة وموضوعات الدين والفلسفة متشابهة إلى حد كبير .

فالمعرفة الفلسفية تعتمد على العقل ، والعقل أداة الفيلسوف للوقوف على حقائق الأشياء ، والدين يحترم العقل الإنساني السوي الصحيح ، ويقدره حق التقدير ولذا نجد القرآن الكريم يهتم بالعقل ويدعو الإنسان إلى استخدام عقله في التفكير والتدبير ، والنظر ، والتذكر والتبصر .

ولقد وردت كلمة : عقل ، وتعقل ، وتعقلون ، ويعقلون ، ويعقل في القرآن الكريم حوالي تسع وأربعين مرة [(٢)] .

---

(١) نفس المصدر صـ ٦٧.

(٢) انظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم . محمد فؤاد عبد الباقي صـ ٥٧٥ . دار الحديث ط ١ ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م .

قال تعالى :

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤) ﴾ (١)

وقال تعالى :

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) ﴾ (٢)

وقال تعالى :

﴿ ... وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤) ﴾ (٣)

وقال تعالى :

﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (٤٣) ﴾ (٤)

وقال تعالى :

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) ﴾ (٥)

---

(١) سورة البقرة الآية (٤٤) .
(٢) سورة البقرة الآية (٧٥) .
(٣) سورة البقرة من الآية (١٦٤) .
(٤) سورة العنكبوت الآية (٤٣) .
(٥) سورة الملك الآية (١٠) .

ومن دلائل اهتمام الدين بالعقل :

(أ) أن القرآن الكريم دعا إلى إعمال العقل في التفكر في ست عشرة آية . منها قال تعالى :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ ﴾(١)

وقال تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ۖ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ (٢)

وقوله عز وجل :

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ۖ لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾(٣)

---

(١) سورة آل عمران الآيات (١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢) .
(٢) سورة الرعد الآية (٣) .
(٣) سورة النحل الآيتين (١٠ ، ١١)

فالقرآن الكريم يوجه دعوة إلى الناس لاستخدام طاقاتهم العقلية في التفكير في عجائب أحوال النبات ، وفي التفكر فيما يحيط بهم من آيات كونية ليصلوا من خلال هذا التفكر إلى الاستدلال على وجود الصانع عز وجل ، وإبداعه وقدرته وحكمته .

فاستخدام الإنسان لطاقته العقلية في التفكر في عجائب الكون يوصلنا إلى الإقرار بوجود الله سبحانه وتعالى وإلى الإذعان بأنه القادر على كل شئ هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى يرتقي بنفسه عند درك الشهوانية ومنازل الحيوانية فقد ميز الله الإنسان بالعقل وبه فضله على سائر المخلوقات وجعله مناط التكليف .

(ب) ومن دلائل اهتمام الدين بالعقل الدعوة إلى النظر قال تعالى :

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ ﴾ [1]

فهذه دعوة قرآنية للإنسان بأن ينظر في نفسه كيف تمت خلقته ؟ وما هي المراحل التي مر بها ؟ وما طبيعة كل مرحلة منها ؟ إن العاقل لو تأمل هذا لوصل إلى الحق دون أن يعتريه أي شك .

وصدق الله تعالى حيث يقول :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ... ۝٥٣ ﴾[2]

وقال تعالى :

﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١ ﴾[3]

---

(١) سورة الطارق الآيات (٥ ، ٦ ، ٧) .
(٢) سورة فصلت الآية (٥٣) .
(٣) سورة الذاريات الآية (٢١) .

الفلسفة الجادة لا تعارض الدين :

الدين الحق لا يعارض الفلسفة الحقة حيث إن الغاية واحدة والهدف كذلك هو تحصيل السعادة والوقوف على حقائق الكون . فلا تعارض إذاً بين الدين والفلسفة .

فمن المعلوم أن الدين لا يعوق عن التفلسف والوقوف عن الحقيقة بل إنه بحث على ذلك ويدفع إلى ذلك دفعاً .

قال تعالى :

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ... ﴿١٠١﴾ ﴾[١]

هذا عن الدين . أما الفلسفة الجادة فهي الأخرى لا تعارض الدين ولا تناقضه فهي لا تتجاهل مسائله أو تتصادم مع قضاياه .

حيث إن " الدين حقيقة واقعة ، والفلسفة الجادة تضع الحقيقة الواقعة كلها في اعتبارها ، ورمي الفلسفة بأنها تؤدي إلى الإلحاد أو الزندقة اتهام لا أساس له " [٢].

وقصارى القول في هذا : إن الفلسفة الحقة لا تؤدي إلى الضلال أو تميل بصاحبها إلى الانحراف بل العكس هو الصواب . أما الوقوف " في منتصف الطريق قد يجرف الإنسان إلى تيار خاطئ " [٣].

يقول " بيكون " في رده على من ألهمه الإلحاد : " قد لا اعتقد بجميع القصص والأساطير التي جاءت بالكتب الدينية ، ولكن لا يمكن أن اعتقد بعدم وجود عقل مدبر لهذا العالم إن القليل من الفلسفة ينزع بعقل الإنسان إلى الإلحاد ، ولكن التعمق فيها ينتهي بعقول

---

(١) سورة يونس جزء من الآية (١٠١) .
(٢) تمهيد للفلسفة . د / محمود زقزوق صـ ٨٢ .
(٣) نفس المصدر صـ ٨٢ .

الناس إلى الإيمان ؛ لأن عقل الإنسان عندما ينظر إلى الأسباب الثانوية المبعثرة قد يتوقف عندها ولا يتجاوزها ، ولكن عندما يشاهد تسلسلها واتحادها ، واتصالها بعضها بعضا ينتهي به ذلك إلى الإيمان بوجود العناية الإلهية " [١].

وإذا كان هذا ماراه " بيكون " فإن " ابن رشد " من قبله قد قرر أن الدين الحق لا يعارض الفلسفة ، والفلسفة الصحيحة تؤكد ما جاء به الدين فكلا هما يعاضد الأخر فيقول : " أن الحكمة هي صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة ... وهما المصطحبتان بالطبع ، المتحابتان بالجوهرة والغريزة [٢].

الدين يحث على التفلسف

من المعلوم أن وسيلة المعرفة الفلسفية هي العقل بينما وسيلة المعرفة الدينية هي الوحي .

وإذا كانت غاية كل من الفلسفة والدين واحدة وهو الوصول إلى الحقيقة فلا يعنى اختلاف طريقها في الوصول إلى هذه الغاية وجود تعارض حقيقي بينهما ذلك ؛ لأن العقل الذي هو وسيلة الفيلسوف في الوصول إلى الحقيقة هبة من الله للإنسان ليميز به ، ويسير مسترشدا بهديه ، ومن ناحية أخرى فإن الوحي أيضاً هبة من الله لهدايته وإرشاده في دنياه وأخراه.

وإذا كان المصدر واحدا فلا يمكن أن يكون هناك تناقض أو نزاع بين الوحي الذي هو من الله ، وبين العقل الذي هو من الله أيضاً. وقد قرر ابن رشد أن الشرع قد أوجب النظر بالعقل في الموجودات [٣].

---

(١) قصة الفلسفة ول ديورانت . ترجمة . د / فتح الله محمد المشعشع صـ ١٤٧. مكتبة المعارف بيروت . ط٥ ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥

(٢) فصل المقال . ابن رشد . صـ ٦٧.

(٣) أنظر : فصل المقال ابن رشد صـ ٢٣ .

وذلك أخذا من الآيات القرآنية الكثيرة التي تدعو إلى النظر والاعتبار مثل :

قوله عز وجل :

﴿... وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... ﴿١٩١﴾﴾[1]

وقوله تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ... ﴾[2]

وقوله جل شأنه :

﴿... فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾﴾[3]

إلى غير ذلك من الآيات . يقول الدكتور محمد يوسف موسى :

نستطيع أن نقرر : أن القرآن بطبيعته وأسلوبه وطريقة تناوله للمسائل أو المشاكل المختلفة يدعو للتفلسف ، وأنه قابل لما هو حق من الآراء التي ذهب إليها المفكرون في هذه النواحي ، وأنه لهذا كان كل أصحاب مذهب كلامي أو فلسفي في الإسلام يهتمون بأن يجدوا لمذاهبهم أسانيد من القرآن الكريم [4].

والعلاقة بين الدين والعقل يراها " الغزالي " علاقة ترابط وتعاون وتعاضد وليست علاقة تناقض أو تنازع ، ولا يمكن أن نستغني بأحدهما عن الآخر فكلاهما مرتبط بالآخر، فها هو يقول :

---

(١) سورة آل عمران الآية رقم (٩١) .

(٢) سورة الأعراف جزء من الآية رقم (١٨٥) .

(٣) سورة الحشر الآية (٢) .

(٤) انظر: القرآن والفلسفة . د. محمد يوسف موسى . صـ ٥٧ . دار المعارف ١٩٦٦م .

فالعقل كالأس أي كالأساس والشرع كالبناء ولن يغني أس ما لم يكن البناء ولن يثبت بناء ما لم يكن أس .. فالشرع عقل من خارج ، والعقل شرع من داخل ، وهما متعاضدان بل متحدان [١].

وكما يري الغزالي : العقل والشرع متعاضدان بل متحدان فإنه يري أيضا أنه لا يمكن أن يوجد تناقض بين العلوم العقلية والعلوم الشرعية ، فإن اعتقد إنسان عدم وجود علاقة بينهما وأن الربط بينهما متعذر فإن ذلك راجع إلى عمى في البصيرة ناتج عن غشاوة الوهم والخيال .

فها هو يقول : " وظن من يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية وأن الجمع بينهما غير ممكن هو ظن عن عمى في عين البصيرة نعوذ بالله منه ، بل هذا القائل ربما يناقض عنده بعض العلوم الشرعية لبعض فيعجز عن الجمع بينهما ، فيظن أنه تناقض في الدين فيتحير به فينسل من الدين انسلال الشعرة من العجين ، وإنما ذلك لأن عجزه في نفسه خيل إليه نقصا في الدين وهيهات "[٢].

والغزالي بهذا يقرر : أن هناك ارتباطاً وثيقا بين العقل والدين ويرى : أن من يعطل أحدهما اكتفاء بالآخر فهو إما جاهل أو مغرور .

وفي هذا يقول : " فالداعي إلى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل . والمكتفي بمجرد العقل من أنوار القرآن والسنة مغرور ، فإياك أن تكون من أحد الفريقين وكن جامعاً بين الأصليين "[٣].

ومن استقراء تاريخ العقل مع الإيمان يتبين أنه لم يحدث بينهما نزاع أدي إلى استبعاد العقل واضطهاد أهله إلا إذا اجتمع أمران :

---

(١) انظر : معارج القدس . الغزالي صـ ٤٦ . المكتبة التجارية . القاهرة .
(٢) إحياء علوم الدين . جـ٣ . صـ ١٩ .
(٣) نفس المصدر جـ ٣ صـ ١٩ .

أولهما : أن تكون لدي رجال اللاهوات سلطة تمكنهم من اضطهاد العقل وأهله ، فإن أعوزتهم السلطة قنعوا بالغيبة ، وانتقموا بالنميمة .

وثانيهما : أن يكون هناك عقل يجرؤ على اقتحام " المنطقة الحرام " التي حرمها رجال اللاهوات ، وارتياد آفاقها والانتهاء منها إلى اكتشاف مجهول أو إنكار مألوف.

وهكذا يجر العقل على نفسه بفضل جرأته ويقظته غضب واضطهاد خصومه ، وبغير اجتماع هذين الأمرين لا يقوم نزاع أو صدام بين العقل والإيمان[١].

ومن خلال ما سبق عرضه يتبين لنا :

أن الأمر في حقيقته ليس نزاعاً بين الدين والفلسفة وإنما هو نزاع كان وسيظل نزاعا بين اللاهوتيين والفلاسفة يشتد في بعض العصور حتى يصل إلى حد الاضطهاد ، وتخف حدته أحيانا أخرى حتى يصل إلى حد الوفاق والوئام [٢].

ولقد تنبه الإمام الغزالي إلى أن الحملة التي يقوم بها بعض الطوائف والجماعات على العقل زاعمين تناقضه مع الشرع وتعارضه مع الدين ، فيدفع هذا الرأي قائلاً :

" فاعلم أن السبب فيه أن الناس نقلوا اسم العقل المعقول إلى المجادلة والمناظرة بالمناقضات والالتزامات وهو صنعة الكلام فلم يقدروا على أن يقرروا عندهم أنكم أخطأتم في التسمية إذا كان لا

---

(١) انظر : قصة النزاع بين الدين والفلسفة . د. توفيق الطويل صـ ١١ ط ٢ مكتبة مصر ١٩٥٨، تمهيد للفلسفة د. محمود زقزوق صـ ٨٣.

(٢) انظر : فلسفة المحدثين والمعاصرين . أ. وولف ، ترجمة د. أبو العلا عفيفي مطبعة محبة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٤.

ينمحي عن قلوبهم بعد تداول الألسنة به ورسوخه في القلوب فذموا العقل والمعقول وهو المسمى به عندهم .

أما نور البصيرة الباطنة التي بها يعرف الله تعالى ، ويعرف صدق رسله فكيف يتصور ذمه وقد أثنى الله عليه وإن ذم فما الذي بعده يحمد فإن المحمود هو الشرع ، فبم علم صحة الشرع ؟

فإن علم بالعقل المذموم الذي لا يوثق به ، فيكون الشرع أيضاً مذموما ولا يلتفت إلى من يقول : إنه يدرك بعين اليقين ، ونور الإيمان لا بالعقل ، فإنا نريد بالعقل ما يريده بعين اليقين ونور الإيمان وهي الصفة الباطنة التي يتميز بها الآدمي عن البهائم ، حتى أدرك بها حقائق الأمور ، وأكثر هذه التخبيطات إنما ثارت من جهل أقوام طلبوا الحقائق من الألفاظ [١].

وقصارى القول في هذا : أن الدين يحث على التفلسف ويدعو إليه ، حيث لا يوجد تعارض بينهما .

أما ما ينسب إلى الدين من وجود تعارض بيته وبين الفلسفة فهذا غير صحيح ، والدليل على ذلك أن الحماقات والاضطهادات التي ارتكبت في حق الفلاسفة والفلسفة باسم الدين ليست من الدين في الشيء . لأن الذين قاموا بها بعض رجال الدين حرصاً على منفعة دنيوية ومكانة يتطلعون إليها وأية ذلك أوربا في العصور الوسطي .

هذا من ناحية ومن ناحية أخري فإن الهجمات التي شنها بعض الفلسفات والفلاسفة على الدين . ليست من الفلسفة الجادة في شيء ؛ لأن الفلسفة الجادة لا تعارض الدين ولا تناقضه بل تؤيده و تعاضده لهذا كان الحديث فيما كان العلاقة بين الدين الحق والفلسفة ألحقه وليس الفلسفات المادية التي لا تؤمن بآله ولا تقر بوجوده .

---

(١) انظر : إحياء علوم الدين جـ ١ صـ ١٠٥ – ١٠٦ .

وعلى ضوء ما تم عرضه يتضح لنا أن أوجه الاتفاق بين الدين والفلسفة يتجلى في الأتي :-

أ - في الموضوع : فالموضوع الذي يعالجه كل منهما واحد فمطلب الدين هو بعينه مطلب الفلسفة . فهما يلتقيان في مسائل مثل الألوهية ، وصلة الإله بالكون وأصل الإنسان ومصيره ... الخ

ب – في الغرض والهدف : فكلاهما يسعى للوقوف على أصل الوجود وتحقيق السعادة في العاجل والآجل .

هذا عن أوجه الاتفاق أما فيما يختلفا فيه فهو على النحو الأتي :-

أ – المصدر والوسيلة : فالدين مصدره الوحي المنزل أما الفلسفة فمصدرها العقل .

ب – المنهج : فالفلسفة تعتمد على المنهج العقلي .في حين أن منهج الدين يجمع بين مخاطبة العقل والقلب والوجدان .

جـ - الغاية : فغاية الدين الفوز برضا الله في الدنيا والآخرة . أما غاية الفلسفة فهي في الغالب غاية دنيوية تهدف إلى معرفة الحق والخير [1].

---

(١) انظر : دراسات فلسفية وأخلاقية . د . محمد كمال جعفر . صـ ٩٥ ، الدين . د . دراز صـ ٦٣ ـ ٦٦ ، مع الفلسفة د . جمال عفيفي صـ ١٣٣ ـ ١٣٥ .

تعقيب

بعد هذا العرض يمكن لنا أن نقول أن : العلاقة بين الفلسفة والدين تتلخص في النقاط الآتية :

أولاً : تلتقي الفلسفة بالدين من حيث الموضوع في بعض المسائل . كالألوهية وعلاقتها بالكون وخلود النفس وأصل الإنسان ومصيره ، وحرية الإرادة ، والسعادة البشرية .

ثانياً : ترتكز الفلسفة على العقل من أجل الإقناع العقلي ، والدين يستخدم العقل في ظل المبادئ الدينية . والقرآن الكريم قد أشبع نهم العقل وفضوله في هذا المجال من ذلك قوله تعالى :

﴿ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَـٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾[1]

وقوله تعالى :

﴿ ... قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾[2]

وغير ذلك من الآيات القرآنية كثير .

ثالثاً : أن الفلسفة تقف دائما موقف الحذر من المسلمات الأولية . وتدعو إلى ضرورة التجرد الخالص في مثل مسألة الوجود الإلهي . أما الدين فيعلن صفات الله تعالى ببرهان الدين ولا يتطلب نظرا عقليا .

رابعاً : تهتم الفلسفة بالنظر العقلي أكثر من اهتمامها بالعمل ، فالفيلسوف يستمر في تأملاته سواء أدت إلى نتائج عملية أو لم

---

(١) سورة النور الآية رقم (١٣) .
(٢) سورة العنكبوت الآية رقم (٦٣) .

تؤد بينما الدين يهتم بالجانب العملي . فيعطي الإنسان إحساسا بالأمن والطمأنينة [١].

وبعد : فلئن تشابه الدين والفلسفة في بعض الموضوعات أوفي غايتها ، فإن الفلسفة ستظل فلسفة فحواها الظن والتخمين . ولن يزال الدين هو الدين منقولا عن رسول الله عن جبريل عن الله تعالى لا مجال فيه لظن أو تخمين من عقل بشرى من خواص الناس أو من عوامهم وصدق رسول الله حيث يقول فيما روى عن عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله (ﷺ) :

{ من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد } [٢] .

---

(١) أنظر : محاضرات في الفلسفة العامة . د. أحمد عبد الوهاب صـ ٤٨- ٤٩ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري ، كتاب الصلح ، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصالح مردود جـ ٢ صـ ٩٥٩ . حديث ٢٥٥٠، ط دار ابن كثير ، اليمامه ، بيروت ط٣ تحقيق مصطفي ديب .


الفصل الخامس
تصنيف العلوم
الفلسفية

تصنيف العلوم الفلسفية

قدمنا فيما سبق جملة من التعريفات الخاصة بالفلسفة ، اتضح من خلالها عدم اتفاق الفلاسفة على وضع تعريف واحد جامع مانع لها .

فقد تعددت التعريفات واختلفت طبقا لرؤية كل فيلسوف ، وبناء على طبيعة عصره وما يبحث فيه من موضوعات .

ونتيجة لذلك تعددت تصنيفات الفلاسفة للعلوم الفلسفية عبر العصور المختلفة ، ومعنى هذا أن الصعوبات التي صادفتنا عند عرضنا لتعريف الفلسفة سوف تصادفنا مرة أخرى .

فمن المعلوم أن أي تصنيف في العلوم الفلسفية يجب أن يخضع لتعريف من تعريفاتها ، وحيث إن التعريفات كثيرة جاءت التصنيفات كذلك : وفيما يلي نلقي الضوء على التصنيفات عبر العصور المختلفة :

أولاً : العصور القديمة :-

١- أفلاطون :

يكاد ينعقد إجماع الباحثين على أن أقدم تصنيف للعلوم الفلسفية هو تصنيف أفلاطون ، يقول أزفلد كولبه:" وربما كان أول تصنيف نعرفه للعلوم الفلسفية هو تصنيف أفلاطون " (١).

واللافت للنظر في هذا الموضوع ما أستند إليه أفلاطون فقد أستند إلى " موضوع العلوم وهي الموجودات ، فينظر إليها من حيث كونها حسية أو مقولة فمتى كان العلم مجرداً كان يقينياً ، ومتى كان

---

(١) انظر : المدخل إلى الفلسفة – أزفلد كولبه – صـ ١٦ – ١٧ .

مادياً حسياً كان العلم أو المعرفة ظنياً ، وإذا كان بين هذا أو ذاك ، أي بين التجريد والمادية كان استدلالياً "[١].

وعلي هذا الأساس يصنف العلوم على النحو التالي :

أ - العلم الظني وهو العلوم الطبيعية والسياسية العلمية و الطب وطريق معرفتها الإحساس والظن .

ب - ثم تأتي المعرفة الاستدلالية . وهي المعرفة الرياضية علماً وسطاً بين المعرفة الحسية والمعرفة العقلية .

جـ - ثم أخر الإلهيات وعلوم الحكمة وتمثل العلم اليقيني الذي هو معرفة الماهيات المجردة [٢]

والمتأمل في هذا التصنيف يستطيع أن يقف على عدة أمور :

١- أن تصنيفه للعلوم جاء طبقاً لنظرية الموجودات من حيث كونها حسية أو معقولة .

٢- أن المعرفة الرياضية واسطة بين المادية والعقلية .

٣- أن المعرفة الإلهية هي المعرفة الحقيقية وهي أرقى المعارف وأعلاها .

هذا هو تصنيف أفلاطون للعلوم الفلسفية نستطيع أن نلمح فيه مدي دقته وسعة افقه . الأمر الذي ساعد على انتشاره وذيوعه وتأثر الكثير به . وليس الأمر كما يري بعض الباحثين أن الذي أدي إلى انتشاره عدم وصول تصنيف دقيق للعلوم خاص بأرسطو [٣].

لأن الحق على خلاف ذلك تماماً فتصنيف أرسطو جاء هو الآخر على درجة عالية من الفكر الرؤية الصحيحة وتأثر به كثير من فلاسفة العصور الوسطى .

---

(١) فلسفة الكندي وآراء القدماء والمحدثين فيه – د . حسام محي الدين الألوسي صـ ١١ . دار الطليعة للطباعة والنشر ط ١ . ١٩٨٥م .

(٢) الكندي رائد الفلسفة العربية الإسلامية . د. بركات مراد صـ٣٠ . الصدر لخدمات الطباعة ط١ . ١٩٩٩م .

(٣) انظر : المدخل إلى الفلسفة – أزفلد كولبه صـ ١٧ .

٣- أرسطو :

يعد أحد الفلاسفة الذين قدموا تصنيفاً للعلوم الفلسفية امتاز بالدقة والوضوح . فقد جاء تصنيفه للعلوم حسب موضوعها فصنفها على النحو التالي :-

أ – العلوم النظرية　ب – العلوم العملية　جـ- العلوم الشعرية

أما عن العلوم النظرية فقد اشتملت على علوم ثلاثة : –

١- العلم الطبيعي : ويبحث في الوجود من حيث هو متحرك محسوس .

٢- العلم الرياضي : ويبحث في الوجود من حيث هو مقدار وعدد مجرد عن المادة .

٣- العلم الإلهي : ويبحث في الوجود من حيث هو مقدار وعدد مجرد عن المادة وهو ما يطلق عليه أرسطو بالفلسفة الأولى تمييزاً لها عن الفلسفة الثانية المتعلقة بعالم الطبيعة [1].

أما عن العلوم العملية فقد اشتملت هي الأخرى على ثلاثة علوم وهي: –

أ- الأخلاق : وموضوعها ، الفعل الإنساني من حيث ما يجب أن يفعل أو يترك .

ب – تدبير المنزل : وموضوعه ، الفعل الإنساني من حيث فرد داخل الأسرة ماله من حقوق وما علية من واجبات .

جـ - السياسية : وموضوعها ، الفعل الإنساني داخل الجماعة .

---

(١) انظر : الكندي رائد الفلسفة العربية . د . بركات مراد صـ ٣٠ ، الكندي وأراء القدامى والمحدثين فيه . د . حسام الألوسي صـ ١٣ .

أما العلوم الشعرية : فموضوعها ، الإنتاج الفني على اختلاف أنواعه .

والملاحظ علي هذا التصنيف أنه جاء علي درجة من الدقة على الرغم من أنه لم يدخل المنطق ضمن العلوم النظرية .

وقد فعل ذلك لأن موضوع المنطق " ليس وجوديا ولكنه ذهني إذ هو علم قوانين الفكر بصرف النظر عن موضوع الفكر ، وعلى هذا فهو علم يتعلم قبل الخوض في أي علم آخر " [١].

لما هو معلوم من أن المنطق هو إله العلوم الفلسفية كلها ومقدمة لها وبدون مراعاة قواعده يكون الفكر معرضاً للزلل والوقوع في التناقض ومع هذا فهناك من الباحثين من أثبت أن أرسطو عالج المنطق في كتبه المنطقية .

لم يغفل أرسطو هذا النوع من النظر كما يتجنون عليه ، كل ما هنالك أنه لم يجمعه في كتاب واحد . فقد جعل لكل موضوع نوعاً من الدليل يلائمه ، ودليل شمول منطق أرسطو كل فروع المنطق قديماً وحديثاً ما نجدة عند (ستيوارت مل) [٢] في منطقة الإستقرائي إلا وفي كتب أرسطو المنطقية ما يقابله أو مبادئ تمكن معالجته لها[٣] .

وعلى هذا فإن ما ادعاه (كوليه) ليس له وجه يقوم عليه . فالواقع الفلسفي يشهد بخلاف ذلك تماماً .

فقد ترك لنا تصنيفاً دقيقاً للعلوم حاول فيه أن يصنف كل علم حسب موضوعه الأمر الذي كان له صداه فيما بعد وخاصة لدى فلاسفة الإسلام الذين تأثروا به وأعجبوا به على نحو ما سيتضح فيما بعد .

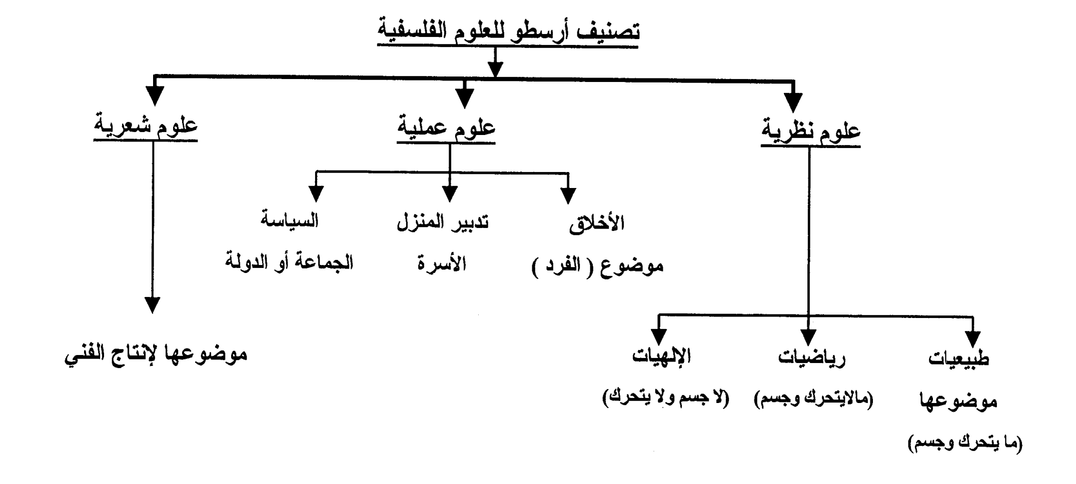
وفيما يلي شكل يوضح تصنيف العلوم عند أرسطو .

---

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية . د . يوسف كرم صـ ١١٨ .

(٢) استيوارت مل ولد عام ١٨٠٦م وتوفي عام ١٨٧٣م تولي أبوه تثقيفه بنفسه وقد أنتخب عضواً بمجلس النواب عام ١٨٦٥م وظل ثلاث سنوات وقد كتب كثيراً في الصحف والمجلات . (أنظر : تاريخ الفلاسفة الحديثة . د. يوسف كرم صـ ٣٤١- ٣٤٢ ط دار المعارف ط٥) .

(٣) تاريخ الفلسفة الحديثة . يوسف كرم صـ ١١٩ .


تصنيف أرسطو للعلوم الفلسفية
علوم نظرية
علوم عملية
علوم شعرية
طبيعيات
موضوعها
(ما يتحرك وجسم)
رياضيات
(مالايتحرك وجسم)
الإلهيات
(لا جسم ولا يتحرك)
الأخلاق
موضوع (الفرد)
تدبير المنزل
الأسرة
السياسة
الجماعة أو الدولة
موضوعها لإنتاج الفني

٣- تصنيف الأبيوقوريين [(١)] والرواقيين : [(٢)]

أ - تصنيف الأبيوقوريين :

السعادة هي الغاية التي يسعى إليها المفكرون ومن أجلها كان جهدهم الدائب في تفسيرها ، ولما كانت السعادة هي الخير الأعظم بصفة خاصة عند هذه المدرسة فقد رأوا أن الوصول إليها يتأتى عن طريق إتباع مطالب الفضيلة التي تتأتى هي الأخرى عن طريق الاستدلال والفكر .

لهذا جاء تصنيفهم للعلوم الفلسفية على النحو التالي :-

أ- الأخلاق ب- المنطق جـ - العلم الطبيعي [(٣)]

وقد جاء هذا التصنيف طبقاً لنظرتهم للفلسفة فقد جعلوها طريقاً يحقق السعادة للإنسان ، كما يوفر له اللذة التي لا يعقبها ألم . على اعتبار أن الفلسفة هي الحكمة العلمية .

واللافت للنظر في هذا التصنيف وجود المنطق فيه على خلاف ما جاء عند أرسطو .

وهم بهذا " يجعلون المنطق قسماً من أقسام الفلسفة وليس أداة لها كما فعل أرسطو . إذ إن المنطق – بحسب مذهبهم – نقد للمعرفة ونظر في علامات الحقيقة وفي الطريق إلى اليقين والطمأنينة العقلية التي تؤدي إلى السعادة ألحقه ، والأخلاق عند الأبيقوريين هي

---

(١) تنسب هذه المدرسه إلى أبيقورس الذي ولد عام ٣٤١ق . م وتوفي عام ٢٨٠ ق . م وقد أنشا مدرسة عرفت باسمه وكان قوام مذهبة الاهتمام باللذة لتحقيق السعادة (أنظر : موسوعة أعلام الفلسفة جـ ١ صـ ٥٢ - ، مقدمة في علم الأخلاق - د . محمود زقزوق صـ ٨٠- ٨١ ط دار الفكر العربي ط ٤) .

(٢) الرواقية مدرسة معاصرة للابيقورية ومعارضة لها ، وسميت بذلك نسبة إلى الرواق الذي كان يعلم فيه مؤسسها زينون الذي ولد عام ٣٣٦ق.م وتوفي عام ٢٦٤ق . م ، وتعد هذه المدرسة صورة من صور مذهب وحدة الوجود (أنظر : تاريخ الفلسفة اليونانية يوسف كرم صـ ٢٢٢ – ٢٢٣ ، والمعجم الفلسفي مجمع اللغة العربية ص ٩٣ – الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١٩٧٩م) .

(٣) انظر : الفلسفة ومباحثها صـ ١٠٩.

محور الفلسفة يخدمها في ذلك المنطق ، وهو علم قوانين الفكر ، ثم العلم الطبيعي " (١) .

٢- تصنيف الرواقيين :

جاء تصنيف العلوم الفلسفية عند الرواقية طبقا لما تقوم عليه الفلسفة الخلقية لديهم فقد قامت على مبدأ يقول " عش على وفاق مع الطبيعة والعقل ، ويقصدون بذلك أمرين هما : الأول : الحتمية الكونية وتعنى أن العالم .... يخضع لقانون عام مطلق لا يخرج عن سلطانه شيء ، - الثاني : أن يكون عمل الإنسان تابعاً لأهم جزء في طبيعته وهو العقل " (٢) .

ومن خلال هذا المبدأ يصل الإنسان إلى الحكمة التي في نظرهم معرفة الأشياء الإلهية والإنسانية ، وهي تنقسم إلى أقسام ثلاثة :

(أ) العلم الطبيعي : وهو يكشف لنا عن وحدة الوجود ، والعقل هو أداة هذا العلم ، وهو كذلك منبث في الطبيعة ، ويسميه الرواقيون (الله) ، وهو الذي يربط بين العلل والمعولات في الطبيعة .

(ب) المنطق : وهو صورة الطبيعة في العقل . فهو الذي يطابق بين أفعال العقل وقوانين الوجود ليسلك الإنسان الطريق الصواب وفقاً للطبيعة .

(جـ) الأخلاق : وهي خضوع العقل للطبيعة . فهي تعني بدراسة السلوك الإنساني (٣) .

---

(١) نفس المصدر صـ ١٠٩ ، انظر : مدخل إلى الفلسفة . د. أحمد رمضان صـ ١٢٩ .
(٢) مقدمه في علم الأخلاق . د/ محمود زقزوق صـ ٩٤- ٩٥ .
(٣) انظر : الفلسفة ومباحثها . د/ محمد أبو ريان صـ ١٠٩ .

هذه هي وجهة نظر أصحاب هذه المدرسة ونظرتهم للعلوم الفلسفية وتصنيفها جاءت طبقا لمبدئهم ، إلا أنها لا تخلو من تأثر بالسابقين فهذا التقسيم أرجعه (شيشرون) إلى أفلاطون وأتباعه ثم أتخذه (الأبيقورية) ،(والرواقية) وجعلوه أساساً لتعليمهم ولمصنفاتهم ، وكان لاتجاههم أثر كبير في الأجيال اللاحقة ، إذ نري هذا التقسيم يبقي في القرون الوسطى في الشرق والغرب .[1]

(١) انظر : الفلسفة الرواقية . د. عثمان أمين صـ ٨٦ . نشر مكتبة الأنجلو المصرية ط٣ ١٩٧١م .

ثانيا : تصنيف العلوم الفلسفية عند المسلمين :

١- الكندي [١]

عند استعرضنا لتصنيف الكندي للعلوم الفلسفية نلمح تأثراً واضحاً بكل من أفلاطون وأرسطو إلا أن هذا لم يمنعه من أن يقدم لنا تصنيفاً آخر للعلوم بحيث يجعله رائداً لتأسيس هذا النوع من العلوم في البيئة الإسلامية ، ويتضح لنا هذا من خلال الوقوف على التصانيف التي جاءت بعده ، فقد تأثرت به واستعانت بكثير من أفكاره ولم تشذ عنه إلا في أحيان قليلة .

وقد جاء تصنيف الكندي على النحو التالي :

(١) العلوم الإنسانية (٢) العلوم الدينية

أولاً : العلوم الإنسانية :

وهي العلوم الفلسفية التي يصل إليها الإنسان بالتكلف والبحث والاكتساب ، وتحتاج إلى زمن لاكتسابها وهي الرياضيات والمنطق والطبيعيات وعلم النفس وعلم ما بعد الطبيعة [٢] .

فأما الرياضيات فهي " علم العدد والتأليف والهندسة والتنجيم الذي هو علم هيئة الكل وعدد أجسامه الكليات وحركاتها وكمية حركاتها ، وما يعرض في ذلك من نوعه ، أما علم العدد فهو أول لجميعها فإن العدد إن ارتفع ارتفعت الموجودات " [٣] .

---

(١) هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق بن الصباح بن عمران ولد في أواخر القرن الثاني الهجري وتوفي عام ٢٥١ بعد أن ترك جملة من المؤلفات منها ، رسالة في ماهية الإنسان ، رسالة في المد والجزر (انظر : التفكير الفلسفي في الإسلام د. عبد الحليم محمود صـ ٢٠٧ – ٢١٠ ط دار المعارف بالقاهرة ط٢ ، فيلسوف العرب والمعلم الثاني الشيخ . مصطفى عبد الرازق صـ ٤٦ – ٥٠ – سلسلة كتاب الثقافة الجديدة . الكتاب رقم ٥٤ – ١٣٦٤هـ - ١٩٤٥ . الهيئة العامة لقصور الثقافة)

(٢) انظر : الكندي رائد الفلسفة د. بركات مراد صـ ٣١ .

(٣) رسائل الكندي الفلسفية بتحقيق د/ أبو ريده صـ ٣٧٠ . دار الفكر العربي . ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م .

ثانياً العلوم الدينية :

ويسميها العلم الإلهي وهذه العلوم خاصة بالرسل عليهم السلام ، لا سبيل إلى اكتسابها أو تعلمها وإنما تتم " بلا طلب ولا تكلف ولا بحث ولا بحلية بالرياضيات والمنطق ولا بزمان ، بل مع إرادته جل وتعالى بتطهير أنفسهم وإنارتها للحق بتطهير أنفسهم وإنارتها للحق بتأييده وتسديده وإلهامه ورسالاته ؛ فإن هذا العلم خاصة للرسل صلوات الله عليهم ، دون البشر وأحد خوالجهم العجيبة ، أعنى آياته الفاضلة لهم من غيرهم من البشر ؛ إذ لا سبيل لغير الرسل من البشر إلى العلم الخطير من علم الجواهر الثواني الخفية " (١) .

هذا هو تصنيف الكندي للعلوم والملاحظ عليه عدة أمور هي :

١- أنه تأثر بكل من أفلاطون وأرسطو إلا أن هذا لم يمنعه من الابتكار .
٢- أن ابتكاره تجلي في إضافته إلى العلوم الفلسفية المعرفة الدينية .
٣- أن الإسلام هو الذي حمله على هذا التصنيف حتى لا تبدو الفلسفة غريبة على المجتمع المسلم .
٤- أنه صنف العلوم على أساس المصدر الذي تصدر عنه هذه العلوم وهو في هذا متأثر بروح الإسلام وفكره .
٥- أنه يجعل الرياضات في المقام الأول من حيث ضرورة الابتداء بها في التعلم فهي مقدمة على العلم الطبيعي وهذا ما قاله أفلاطون فهو يقول : " انه العلم الذي منه تستمد كل الفنون

---

(١) رسائل الكندي الفلسفية صـ ٣٧٢ ـ ٣٧٣ .

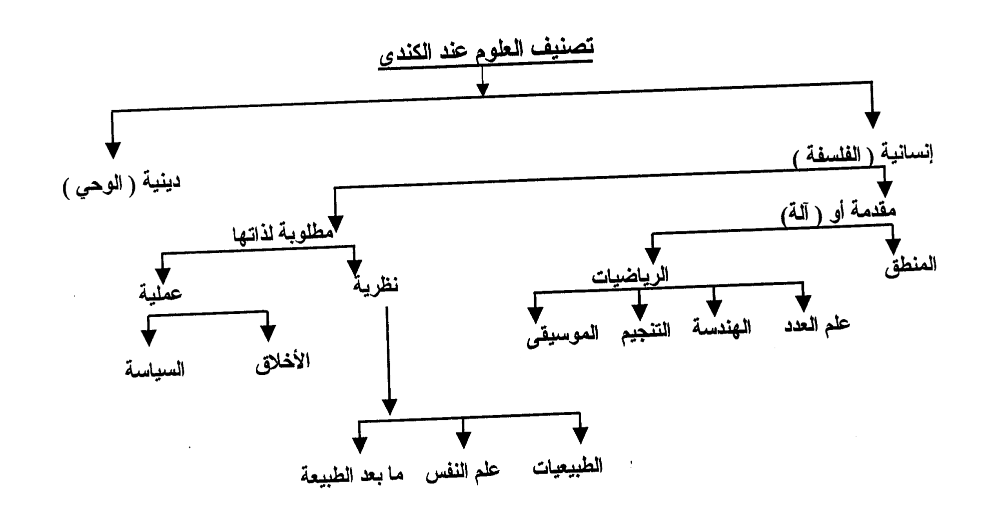
والعلوم وجودها ... وهو أول ما يجب على المرء إحرازه من العلوم " (١).

٦- أن العلوم الإنسانية أو الفلسفة من رياضيات ومنطق وطبيعيات وما بعد الطبيعة والأخلاق والسياسة هي علوم بشرية وثمرة تحصيل للفكر الإنساني لاعتمادها على العقل واستخدامها لمناهج الاستدلال والتجريد وهي تقتضي الطلب والبحث بأدوات الرياضيات وكذلك المنطق الذي هو آلة العلوم جميعها (٢).

وفيما يلي شكل يوضح تصنيف العلوم عند الكندي (٣).

---

(١) جمهورية أفلاطون . الكتاب السابع صـ ٢٨٢ . ترجمة حنا خباز . الكاتب العربي . بيروت (بدون تاريخ) .
(٢) انظر : الكندي رائد الفلسفة العربية د/ بركات مراد صـ ٣١-٣٢ .
(٣) فلسفة الكندي د/ حسام الألوسي صـ ٢٥ .


تصنيف العلوم عند الكندى
إنسانية (الفلسفة)
دينية (الوحي)
مقدمة أو (آلة)
مطلوبة لذاتها
المنطق
الرياضيات
علم العدد
الهندسة
التنجيم
الموسيقى
نظرية
عملية
الأخلاق
السياسة
الطبيعيات
علم النفس
ما بعد الطبيعة

٢- تصنيف العلوم عند العامري (١)

لقد اتبع العامري التصنيف الذي اتبعه الكندي من قبله ، فنراه يقسم العلوم إلى قسمين : هما العلوم الفلسفية ، والعلوم الدينية وقد وضع تحت كل قسم مجموعة أخرى من العلوم يضاف إليها المنطق باعتباره آله أو أداة لكل العلوم . وعرض لتصنيفه على النحو التالي :

(أ) العلوم الفلسفية أو العلوم الحكمية .

ويسميها العامري بالعلوم العقلية والعلة في هذا أن الأداة فيها العقل الإنساني وتشتمل على علوم ثلاثة :-

١- العلوم الرياضية وتشتمل على خمسة شعب هي :-

أ- العدد والهندسة ب- علم الفلك (التنجيم) جـ- التأليف

د- الموسيقى هـ- الحيل أي (علم الميكانيكا)

وموضوع هذه العلوم دراسة حركة الأفلاك والكواكب .

٢- العلوم الطبيعية :

وتختص بالأجسام والموجودات الطبيعية .

٣- العلوم الإلهية :

ويضعها العامري على رأس العلوم الفلسفية ، ويري أن موضوعاتها لا تدرك عن طريق الحس بل عن طريق العقل المجرد [٢].

---

(١) هو أبو محمد بن محمد يوسف العامري النيسابوري ، ولد في أوائل القرن الرابع الهجري وتوفي عام ٣٨١هـ - ٣٧٥م بعد أن ترك جملة مؤلفات كثيرة منها الإعلام بمناقب الإسلام ، الأمد على الأبد ، السعادة والإسعاد (انظر : الإنسان في الفلسفة الإسلامية . دراسة مقارنة في فكر العامري د. منى أحمد أبو زيد صـ ٧ – ١١ – المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع . ط١ ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م) .

(٢) انظر : الأعلام مناقب الإسلام . للعامري صـ ٨٤- ٩٥ . تحقيق د/ عبد الحميد غراب القاهرة ط١ ١٩٧٦م ، الإنسان في فكر العامري د. منى أبو زيد صـ ٩٢- ٩٨ .

ويضاف إلى هذا علم المنطق باعتبار انه آله العلوم الفلسفية جميعها فهو : " آله بها يقع الفصل والتمييز بين ما يقال هو حق أو باطل ، فقيما يعتقد وبين ما يقال : هو خير أن شر فيما يفعل " (١) .

(ب) العلوم الدينية :

وهي أشرف العلوم وأعلاها رتبة وأرفعها درجة وهي تشتمل على علوم ثلاثة وهي :

١- علم الحديث : وموضوعة علم الأخبار فهو يتعلق بالأخبار المنقولة سواء من كتب منزلة ، أو من رسل وأئمة أو حكماء. وهذا العلم مصدر أساسي في المعرفة الدينية بجوار القرآن الكريم .

٢- علم الفقه : وهو في المرتبة التالية للكتاب والسنة من حيث فائدته للإنسان المسلم ، فهو العلم الخاص بالرأي والقياس .

٣- علم الكلام : وهو أيضاً من العلوم ذات الفائدة للدين وللإنسان معا ، فهو يستخدم للدفاع عن صحة العقيدة الإسلامية ، ورد سهام الملحدين والزنادقة . أما بالنسبة للإنسان فهو يحدد له أصول الدين وكيفية معرفتها (٢).

هذه هي العلوم الدينية بما اشتملت عليه من أقسام . وإذا كانت للعلوم الفلسفية آله وهي المنطق فالعلوم الدينية آله خاصة بها وهي العلوم اللغوية كالنحو والصرف والعروض والقافية (٣).

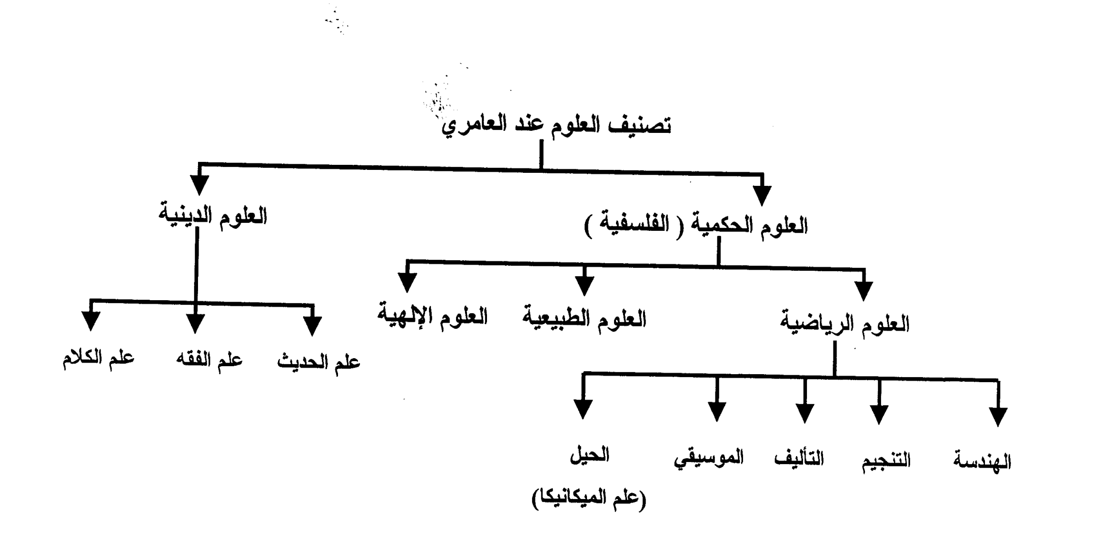
وفيما يلي رسم توضحي يوضح تصنيف العلوم عند العامري

---

(١) المقابسات . لأبي حيان التوحيدي صـ ١٧١ تحقيق حسن السندوبي . دار سعاد الصباح.

(٢) الإنسان في الفلسفة الإسلامية د. منى أحمد أبو زيد صـ ٨٩- ١٠٠.

(٣) نفس المصدر صـ ١٠٠- ١٠١ .


تصنيف العلوم عند العامري
العلوم الحكمية (الفلسفية)
العلوم الدينية
العلوم الرياضية
العلوم الطبيعية
العلوم الإلهية
علم الحديث
علم الفقه
علم الكلام
الهندسة
التنجيم
التأليف
الموسيقي
الحيل
(علم الميكانيكا)

٣- تصنيف العلوم عند الفارابي :

الفارابي أحد فلاسفة الإسلام الذين قاموا بوضع تصنيف العلوم .

إلا أنه ينفرد عنهم بأنه الفيلسوف المسلم الذي أفرد لها كتاباً خاصاً بها مما يؤكد عنايته بهذا الأمر واهتمامه بها .

وقد قدر لهذا الكتاب أن ينتشر انتشاراً واسعاً في الشرق والغرب في العصور الوسطى على حد سواء ، وقدر له أن يترجم إلى اللغة اللاتينية وصار أساساً لكل تصانيف العلوم فيما بعد [١].

يقول صاحب عيون الأنبا في طبقات الأطباء ناقلاً عن صاعد الأندلسي صاحب كتاب طبقات الأمم المتوفي سنة ٤٧٣هـ/١٠٧٠م .

" ثم له – الفارابي - بعد هذا كتاب شريف في إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها لم يسبق إليه ، ولا ذهب أحد مذهبه فيه . لا يستغني طلاب العلوم كلها عن الاهتداء به وتقديم النظر فيه " [٢].

وقد حدد الفارابي غرضه من هذا الكتاب فهو يقول :

والغرض من هذا الكتاب أن نحصي العلوم المشهورة علماً علماً ، ونعرف مجمل ما يشتمل عليه كل واحد منها وأجزاء كل ما له أجزاء ، ويحمل ما في كل واحد من أجزائه . ونجعله في خمسة فصول : الأول في علم اللسان وأجزائه ، والثاني في علم المنطق وأجزائه ، والثالث قي علوم التعاليم .... والرابع في العلم الطبيعي وأجزائه ، وفي العلم الإلهي وأجزائه ، والخامس في العلم المدني وأجزائه وفي علم الفقه وعلم الكلام [٣].

---

(١) انظر : الفلسفة ومباحثها . د. محمد أبو ريان صـ ١١٠ ، نماذج من فلسفة الإسلاميين . د. سامي نصر لطف جـ ١ صـ ١٣٥ . مكتبة سعيد رأفت ط ٣ ١٩٨٣ م .

(٢) عيون الأبناء في طبقات الأطباء . لابن أبي أصيبعة صـ ٥٥٩ . دار الكتب العلمية ببيروت ط١ ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م .

(٣) انظر : إحصاء العلوم . للفارابي تحقيق د. عثمان أمين صـ ٢ مكتبة الخانجي ١٩٣١ م .

ويقسم الفارابي العلوم على النحو التالي :

١ – علم اللسان : - ويتضمن :

أ – حفظ الألفاظ الدالة عند أمة ما وعلم ما يدل عليه شيء منها .

ب – علم قوانين تلك الألفاظ .

٢ – علم المنطق : - ويتضمن :

أ – المقولات . ب – العبارة . جـ - القياس .

د – البرهان . هـ - المواضع الجدلية . و – الخطابة .

ز – الشعر .

٣ – علم العدد : - ويتضمن :

أ – علم العدد . ب – علم الهندسة . جـ - علم المناظر .

د – علم النجوم . هـ - علم الانتقال . و – علم الحيل .

٤ – العلم الطبيعي :-

وهو ينظر في الأجسام الطبيعية وفي الأعراض التي قوامها في الأجسام ، ويبحث في الأمور التالية :

أ – الأجسام الطبيعية مثل السماء والأرض ، وما بينهما ، والنبات ، والحيوان .

ب – الأجسام الصناعية مثل الزجاج والسيف وغير ذلك مما يوجد بالصناعة فهذين القسمين هما موضوع بحث العلم الطبيعي ، وأما أقسامه فهي :

(١) السماع الطبيعي . (٢) السماء والعالم .

(٣) الكون والفساد . (٤) الآثار العلوية .

(٥) المعادن . (٦) النبات .

(٧) الحيوان والنفس .

٥- العلم الإلهي :-

وقد ضمّنه كتابه ما بعد الطبيعية وينقسم إلى أقسام ثلاثة :-
الأول : يفحص عن الموجودات والأشياء التي تعرض لها بما هي موجودات (المبادئ الأولى للفلسفة) .
الثاني : يفحص عن مبادئ البراهين في العلوم النظرية والجزئية .
الثالث : يفحص عن الموجودات التي ليست بأجسام ولا في أجسام (الموجودات المجردة) .

٦ – العلم المدني :-

وهو يفحص عن أصناف الأفعال والسنن الإرادية ... وكيف ينبغي أن تكون موجودة في الإنسان دون غيره من الكائنات الحية الأخرى ، كما أن هذا العلم يفصل غايات الأفعال والتي بسببها تفعل ، وهذا العلم جزءان :

أ- جزء يشتمل على تعريف السعادة باعتبارها مطلب أساسي للإنسان .

ب- جزء يشمل وجه ترتيب الشيم والسير والأفعال .

٧ – علم الفقه : – وله جزءان :

أ – في الآراء . ب – في الأفعال .

وقد قسمه على هذا النحو بناء على ما عرفه به فهو عنده العلم الذي به يفيد الإنسان على أن يستنبط تقدير شيء من شيء مما لم يصرح واضع الشريعة بتحديده على الأشياء التي صرح فيها بالتحديد والتقدير .

٨ – علم الكلام :-

وهو ملكة يقتدر بها الإنسان على نصرة الآراء والأفعال المحددة التي صرح بها واضع الملة وهو جزءان .

أ- الآراء .   ب – الأفعال .[1]

هذا هو تصنيف الفارابي للعلوم كما جاء في كتابه إحصاء العلوم والملاحظ أنه نفس تقسيم أرسطو للعلوم إلا أن الفارابي أضاف إليه علمي الفقه وعلم الكلام ، وهما علمان إسلاميان كانت لهما أهمية كبرى ومكانة عظمى في عصره .

وهذا يعني أن فلاسفة الإسلام ليسوا مجرد نقلة فالكندي إذا كان قد تأثر بأرسطو . فهذا أمر طبيعي ؛ لأن العرف جرى على تأثر اللاحق بالسابق يأخذ منه ويتأثر به ويضيف إليه وهذا ما فعله الكندي عندما أضاف العلوم الدينية . التي لم يكن في وسع أفلاطون و أرسطو أو أحد من شراحهما الوقوف عليه على هذا النحو .

وعلى نفس الضرب يسير الفارابي ويتأثر بفكر من سبقه وينقله إلا أنه لم يقف عند هذا الحد ، بل يضيف عليه .

ومعنى هذا أن الكندي إذا كان ينسب إليه فضل السبق في البيئة الإسلامية بتقسيمه للعلوم ، فإنه ما يحسب للفارابي أن تصنيفه جاء بمثابة المرآة الصادقة والشاملة للحياة العقلية والفكرية لدى المسلمين وذلك من خلال ما أضافه إلى تصنيف أرسطو من علوم شرعية وعقدية ولغوية شملت الجوانب الأخرى التي لم يتعرض لها فلاسفة اليونان من قبله .

وبهذا يكون تصنيف الفارابي التقى مع تصنيف الكندي . فكما هو واضح فكلاهما يصنف العلوم طبقاً للمصدر الذي تصدر عنه ، وهذا هو المميز الأساسي لتصنيف العلم عند فلاسفة الإسلام .

لكن هنا يتبادر إلى الذهن سؤال مؤداه ما هو الأساس الذي يقيم الفارابي تصنيفه للعلوم ؟

---

(١) إحصاء العلوم . للفارابي . تحقيق وتعليق د . عثمان أمين صـ ٢ وما بعدها

فمن المعلوم – كما ذكرنا سابقاً – أن الفارابي أشار في صدر كتابه إحصاء العلوم أن الغرض منه إحصاء العلوم الموجودة في عصره " ليطلع عليها المثقفون ، ولذا فهو لم يشر في كتابه إلى نظرية واضحة المعالم تكون أساساً صريحاً لتصنيفه للعلوم ، ولكنه يشير إلى قريب من هذه النظرية في رسالة أخرى له هي رسالة : (التنبيه على سبيل السعادة) " [1] .

ففيها يقسم العلوم إلى قسمين كبيرين فهو يقول :

ولما كان الجميل صنفين : صنف هو علم فقط ، وصنف هو علم وعمل ؛ صارت صناعة الفلسفة صنفين :

الأول : صنف به تحصل معرفة الموجودات التي ليس للإنسان فعلها ، وهذه تسمى النظرية .

الثاني : صنف بها تحصل معرفة الأشياء التي شأنها أن تفعل ، والقوة على فعل الجميل منها وهذه تسمى الفلسفة العملية .

والفلسفة المدنية والفلسفة النظرية تشتمل على ثلاثة أصناف من العلوم :-

أحدهما : علم التعاليم .

الثاني: العلم الطبيعي .

الثالث: علم ما بعد الطبيعيات .

وكل واحد من هذه العلوم الثلاثة يشمل على صنف من الموجودات التي شأنها أن تعلم فقط .

أي أن غاية كل علم من هذه العلوم مجرد معرفة نظرية فقط والعلوم العملية والفلسفة المدنية صنفان :-

الأول : يحصل به علم الأفعال الجميلة والأخلاق التي تصدر عنها الأفعال الجميلة وتسمى بالصناعة الخلقية .

---

(١) الفلسفة و مباحثها د . محمد أبو ريان صـ ١١٦ .

الثاني : يشمل علم معرفة الأمور التي بها تحصل الأشياء الجميلة لأهل المدن والقدرة على تحصيلها لهم وحفظهم عليهم ، وهذه تسمى الفلسفة السياسة[1] .

هذا هو الأساس الذي أقام عليه الفارابي تصنيفه للعلوم ، والذي جاء كتابه إحصاء العلوم تطبيق لهذه النظرية ضمنها كتابه " التنبيه على سبيل السعادة " .

٤- تصنيف العلوم عند إخوان الصفا :

إذا انتقالنا إلى إخوان الصفا وجدنا أنهم وضعوا تصنيفاً للعلوم وذلك لما يترتب عليه من فوائد .

فعن طريقه يسترشد طلاب العلم فيعرفون ما ترغب فيه نفوسهم من علوم ؛ حيث إن رغبة النفوس في العلوم المختلفة وفنون الآداب مثلها مثل رغبة الأجسام للأطعمة المختلفة الطعم واللون والرائحة [1] .

وقد جاء تصنيفهم للعلوم على النحو التالي :-

١ – العلوم الرياضية ٢ – العلوم الشرعية ٣ – العلوم الفلسفية

ولكل جنس من هذه العلوم أهل هم فيه متفاضلون[2] .

أولاً : العلوم الرياضية[3] :-

وتشتمل على علوم الآداب التي وضع معظمها لطلب المعاش وصلاح أمر الدنيا وهذه العلوم تسعة هي :-

أ – القراءة والكتابة . ب – علم النحو واللغة .

---

(١) التنبيه على سبيل السعادة . حققه وقدم له د. جعفر آل ياسين صـ ٧٦ ـ٧٧ . دار المناهل ط ٢ . ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م

(١) أنظر: رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا جـ ١. صـ ٢٦٦ . دار صادر بيروت . ١٣٧٦ هـ ١٩٥٧م .

(٢) أنظر : نفس المصدر جـ ١ . صـ٢٦٦

(٣) ينبغي ملاحظة الفرق بين العلوم الرياضية وهي علوم الآداب التي وضعت لطلب المعاش في الدنيا هذا لدى الإخوان وبين علم الرياضيات التي تضم علم العدد والهندسة والموسيقى والنجوم لأن الرياضيات جزء من العلوم الفلسفية . (أنظر : فلسفة التربية عند إخوان الصفا د . نادية جمال الدين صـ ٣١٥ في الهامش مطبعة نهضة مصر ١٩٨٣ م) .

جـ - علم الحساب والمعاملات . د – علم الشعر والعروض .
هـ - علم الزجر والفأل وما شاكلهما . و – علم الحرف والصنائع .
ز – علم البيع والشراء والتجارات . حـ - علم الحرث والنسل .
ط –علم السير والأخبار [٤] .

ثانياً : العلوم الشرعية :-

وهي التي وضعت لطب النفوس وطلب الآخرة ، وهي علوم يثاب عليها من يعلمها ، ويعذب من يتخلف عن أحكامها . وأصناف هذه العلوم ستة :

أ. علم التنزيل ب . علم التأويل
جـ . علم الروايات والأخبار د. علم الفقه والسنن والأحكام
هـ . علم التذكار والمواعظ والتصوف و . علم تأويل المنامات

ولكل صنف من هذه الأصناف أهل وأصحاب هم به قائمون حيث تخصصوا فيه ، ومنهم وعلى أيديهم يتعلم طلاب هذا اللون من العلوم .

ثالثاً : العلوم الفلسفية وأصناف هذه العلوم أربعة :-

أ – الرياضيات ب – المنطقيات
جـ - الطبيعيات هـ - الإلهيات

وكل صنف من هذه العلوم يشتمل على عدد من هذه العلوم

أولاً : الرياضيات :

وهي تضم علوماً أربعة : -

أ – الأرثماطيقي : وهو معرفة خواص العدد وما يطابقها من معاني الموجودات .

---

(٤) أنظر : دراسات في الفكر الإسلامي . د . عبد الطيف العبد صـ ١٢٤ – ١٢٧ . مكتبة الأنجلو المصرية .

ب – الجومطريا : وهو علم الهندسة ، وبه تكون معرفة ماهية المقادير ذات الأبعاد وكمية أنواعها وخواص تلك الأنواع .

جـ - الأسطروثوميا : وهي علم النجوم ، وهي معرفة كمية الأفلاك والكواكب والبروج وكمية أبعادها ، ومقادير أجرامها وكيفية تركيبها وسرعة حركتها ، وكيفية دورانها ودلائلها على الكائنات قبل كونها .

د – الموسيقى : وهي معرفة تأليف الأصوات وبه استخراج أصول الألحان .

ثانياً : المنطقيات :

وهي تضم خمسة علوم : -

أ – بوئيطيقا : وهو معرفة صناعة الشعر .

ب – ريطوريقا : وهو معرفة صناعة الخطب .

جـ - طوبيقا : وهو معرفة صناعة الجدل .

د - أنولوطيقا : وهو معرفة صناعة البرهان .

هـ - سوفسطيقا : وهو معرفة صناعة المغالطين في المناظرة والجدل .

ثالثاً : الطبيعيات :

وهي تضم علوماً سبعة : -

أ – علم المبادئ الجسمانية . ب – علم السماء والعالم .

جـ - علم الكون والفساد . د – علم حوادث الجو .

هـ - علم المعادن . و – علم النبات .

ز – علم الحيوان .

رابعاً : الإلهيات : وتنقسم إلى خمسة أنواع : -

١- معرفة الله .

٢- علم الروحانيات وبه معرفة الجواهر العقلية البسيطة العلامة الفعالة التي هي ملائكة الله .

٣- علم النفسيات : وهو معرفة النفوس والأرواح السارية في الأجسام الفلكية والطبيعية .

٤- علم السياسية وينقسم إلى :

أ – السياسة النبوية . ب – السياسة الملوكية .

جـ – السياسة العامية . د - السياسة الخاصية .

هـ - السياسة الذاتية .

٥ – علم الميعاد :

وهو معرفة النشأة الأخرى ، وكيفية الحساب وما يتبعه من أحداث[1] .

هذا هو تصنيف إخوان الصفا للعلوم ، والملاحظ عليه :-

١ - أنهم لم يبتدعوه بل تأثروا بمن سبقهم من فلاسفة اليونان أو الإسلام على حد سواء .

٢ – أنهم لم يقتصروا فيه على العلوم الفلسفية بل أضافوا إليه ما يتلاءم مع البيئة الإسلامية .

٣ – أنهم لم يقسموا العلوم إلى نظرية وعلمية حيث أدخلوا القسم العلمي كله في الإلهيات .

٤ – أنهم أضافوا إلى العلوم الفلسفية علوماً لم تكن موجودة من قبل . وذلك كالمعاد والسياسة النبوية .

٥ – أنهم جعلوا المنطق قسماً من أقسام الفلسفة وليس آلة لها ثم عادوا في الموضع آخر وجعلوه أداة الفيلسوف وميزان الفلسفة .

٦ – أن هذه التصنيف تعد الرسائل على النحو الذي جاءت عليه من حيث ترتيبها وتنظيم أقسامها ترجمة له .

---

(١) انظر : رسائل إخوان الصفا جـ ١ . صـ٢٦٦ ـ٢٧٥ ، الإنسان في فكر إخوان الصفا د . عبد اللطيف العبد صـ ٣٣٠ ـ ٣٣٣ . نشر مكتبة الأنجلو المصرية .

٥- تصنيف العلوم عند الغزالي

لقد عرض الإمام الغزالي لتصنيف العلوم في أكثر من موضع في كتبه استفاد فيها من آراء سابقيه كما أعطاها صوراً أقرب إلى الإسلامية .

وقد جاء تصنيف العلوم عنده على صورتين :-

الصورة الأولى :

أخذ فيها بآراء الفلاسفة فقسم العلوم إلى قسمين :

أحدهما : عملي والأخر : نظري

وينقسم العملي إلى ثلاثة أقسام :-

أ - العلم بتدبير المشاركة التي للإنسان مع الناس كافة – وأصل هذا العلم هو العلوم الشرعية وتكمله العلوم السياسة .

ب - علم تدبير المنزل .

جـ - علم الأخلاق .

والعلم النظري فهو ينقسم أيضاً إلى ثلاثة أقسام :-

أ - العلم الإلهي (أو الفلسفة الأولى) .

ب - العلم الرياضي .

جـ - العلم الطبيعي .

والملاحظ على هذا التقسيم أنه لا يشمل علم المنطق ؛ حيث إن الغزالي عده مقدمة ضرورية لأي من العلوم [1].

الصورة الثانية :

وفيها يصنف العلوم بناء على دراسته ونظرته للنفس الإنسانية وقد عرض لها في كتابه القيم إحياء علوم الدين في ثلاثة مواضع :-

الموضع الأول : وفيه قسم العلوم إلى قسمين :

(١) انظر : مقاصد الفلاسفة للغزالي . تحقيق د. سليمان دنيا ص ١٣٤ – ١٣٧. دار المعارف ١٩٦١ م

أ - علوم مكاشفة . وهو علم الباطن وذلك غاية العلوم

ب -علوم معاملة . وهو علم أحوال القلب [١].

الموضع الثاني : وفيه يصف العلوم على النحو التالي :-

أ - علوم شرعية ب - علوم غير شرعية

والعلوم الشرعية ما أستفيد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه وهي كلها محمودة ، ولكن قد يختلط فيها ما يظن أنها شرعية وتنقسم إلى أربعة أقسام :-

١ – الأصول : وهي أربعة كتاب الله ، وسنة رسوله ، وإجماع الأمة ، وأثار الصحابة .

٢ – الفروع : وهو ما فهم من الأصول من معارف تتسع لها العقول مثل الفقه وهو العلم بمصالح الدنيا ، وعلم أحوال القلب وهو العلم بمصالح الآخرة .

٣ – المقدمات : وهي التي تجري منه مجرى الآلات ، كعلم اللغة والنحو ، فإنهما آلة لعلم كتاب الله تعالى وسنة نبيه .

٤ – المتممات : إذ أن لكل من العلوم السابقة ما يتممها كعلوم القرآن التي تتمم العلم لكتاب الله وهو من فروع الأصول[٢] .

الموضع الثالث : وفيه يصنف العلوم إلى قسمين :-

١ – عقلية . ٢ – شرعية .

والعلوم العقلية نوعان : الأول - ضرورية والثاني - مكتسبة والمكتسبة تتنوع هي الأخرى إلى قسمين :-

١ – دنيوية ٢ – أخروية [٣]

هذا هو تصنيف العلوم عند الإمام الغزالي نلمح فيه دقة وابتكاراً

---

(١) انظر : إحياء علوم الدين للغزالي . جـ ١ صـ ٣١- ٣٣ . دار الريان للتراث .

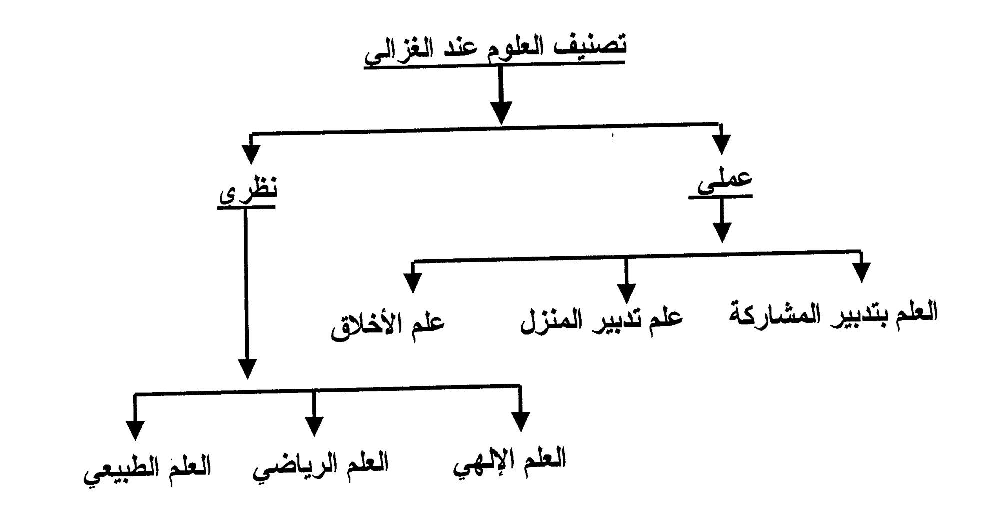
(٢) انظر : إحياء علوم الدين جـ ١ صـ ٢٧ – ٢٨ .

(٣) انظر : إحياء علوم الدين جـ ٣ صـ ١٨ ، الدراسات النفسية عند علماء المسلمين . د. عبد الكريم العتمان صـ ٢٠ – ٢٢ . نشر مكتبة وهبة ط ٢ . ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م .

ويكفي أنه على الرغم من تأثره بمن سبقه إلا أنه وزن بينها واستفاد منها وقدم لنا تصنيفاً يتفق مع عقيدته الدينية من ناحية ، ومن ناحية أخرى فيها يستقيم مع عقلية الغزالي التي تقوم على التأليف بين الآراء والتي يبدو فيها مجدداً في كثير من الأحيان . والذي يساعد على تأكيد هذا أن التصنيف الذي عرضه في كتاب الإحياء يتفق تماماً مع تجربته الصوفية ، ويتلاءم مع قدراته الفكرية حيث إنه جاء خالياً من التناقض . فلا تعارض بينه وبين ما عرض له في كتاب المقاصد .

فقد جمع في التصنيف الفلسفي بين العلوم النظرية والعملية في إطار واحد ، ثم فضل في النهاية طريق الصوفية الذي عنده أعلى درجة وأرفع منزلة ، وذلك في تصنيفه للعلوم في كتاب الإحياء .

وفيما يلي رسم توضيحي لصورة من تصنيف العلوم عند الغزالي :-


تصنيف العلوم عند الغزالي
عملي
نظري
العلم بتدبير المشاركة
علم تدبير المنزل
علم الأخلاق
العلم الإلهي
العلم الرياضي
العلم الطبيعي

٦- تصنيف العلوم عند ابن سينا (١)

تعرض ابن سينا لتصنيف العلوم في عدة مواضع من كتبة جاءت مختلفة باختلاف تجربته الفلسفية كما يقول بعض الباحثين :

لم يلتزم " ابن سينا " في تصنيفه للعلوم تصنيفاً واحد في جميع كتبة بل كان هذا التصنيف يختلف باختلاف تجربته الفلسفية ونمو استقلاله الذاتي ، فمثلاً نراه في كتابة " عيون الحكمة " [٢] يتبنى التصنيف الأرسطى تماماً ، فيقسم العلوم إلى نظرية وعملية [٣] .

بينما نراه في كتابة " منطق المستشرقين " نراه يقدم لنا تصنيفاً آخر فيقسم العلوم إلى قسمين : علوم كلية متساوية النسب إلى جميع أجزاء الدهر ، وأخري جزئية لا يصح أن تجري أحكامها الدهر كله هذه العلوم أولي بأن تسمي حكمة ، يقول ابن سينا : إن العلوم كثيرة والشهوات لها مختلفة ولكنها تنقسم أول ما تنقسم إلى قسمين : علوم لا يصلح أن تجري أحكامها الدهر كله بل طائفة من الزمان ثم تسقط بعدها ، أو تكون معقولاً عند الحاجة إليها بأعينها وعلوم متساوية النسب . إلى جميع أجزاء الدهر . وهذه العلوم أولي بأن تسمي (الحكمة) ، وهذه منها أصول ، ومنها توابع وفروع وغرضنا هاهنا هو في الأصول وهذه التي سميناها توابع وفروعاً فهي كالطب والفلاحة وعلوم جزئية تنسب إلى التنجيم وصنائع أخرى لا حاجة بنا إلى ذكرها .

---

(١) هو الشيخ أبو على الحسن بن عبد الله بن الحسن بن سينا ولد عام ٣٧٠هـ وتوفي عام ٣٤٨هـ بعد أن ترك جملة من المؤلفات في مختلف الفنون كالطب والحكمة وغيرهما (أنظر : عيون الأنباء في طبقات الأطباء لأبن أبي أصبيعة صـ ٤٠-٤٥ ، في النفس والعقل د. محمود قاسم صـ ٧٦ ـ ٧٧ ، مكتبة الأنجلو ط ٤ ١٩٦٩م) .

(٢) انظر : تسع رسائل لابن سينا في الحكمة والطبيعيات صـ ١١٢ . مطبعة الجوانب القسطنطينية . ١٢٩٨هـ .

(٣) انظر : الفلسفة الإسلامية في المشرق . د. حامد الخولي صـ ٢١٣ . الشرق الأوسط للطباعة .

ثم يبحث ابن سينا في الأصول فيري أنها تنقسم إلى قسمين أيضاً : قسم هو آله (وهو المنطق) ينتفع بها لما يرام تحصيله من العلم بالأمور الموجودة وفي ما هو قبل العالم .

والقسم الثاني هذا فرعان أحدهما : غايته تزكية النفس بالمعرفة وهو العلم النظري ، والثاني : العمل وفقاً لهذه المعرفة وهو العلم العملي فالأول يسعى إلى معرفة الخير ، وكل من العلم النظري والعلم العملي يقسم بدورة إلى أربعه أقسام ، ففي النظري العلم الطبيعي والعلم الطبيعي والعلم الإلهي والعلم الكلي وفي العملي علم الأخلاق وتدبير المنزل وتدبير المدينة والنبوة [1] .

وعلي ذلك يكون تقسيم العلوم عند ابن سينا على النحو التالي : -

١- المنطق : هو آله في سائر العلوم ؛ لأنه ينبه على الأصول التي يحتاج إليها كل من يقتنص المجهول من المعلوم فيكون مشيراً إلى جميع الجهات التي تنقل الذهن من المجهول إلى المعلوم كما يشير إلى جميع الأنحاء والجهات التي تضل الذهن وتوهمه استقامة مأخذه نحو المطلوب من المجهول ولا يكون كذلك .

٢- العلم الطبيعي : يبحث في الأمور المخالطة للمادة المبينة حداً وقواماً ، وهذه الأمور لا يمكن أن توجد في أية مادة اتفقت بل في مادة ما معينه مهيأة لها مثل (الإنسانية) في الإنسان و (العظيمة) في العظم فلا تصلحان لأية مادة كانت غير مادتها .

٣- العلم الرياضي : يبحث أيضاً في الأمور المخالطة للمادة دون أن تكون خاصة بمادة معينه بل إن كل مادة تصلح لأن تخالطها ما لم يمنع مانع كالثنائية والثلاثية تصلحان للعظم

(١) أنظر : منطق المشرقين ص ٥- ٧ ـ المطبعة السلفية ١٩١٠م .

والإنسان ولغيرهما من الموجودات وكالتربيع والتدوير في أجسام مختلفة .

٤ـ العلم الإلهي : يبحث في أمور لا تصلح لان تخالط المادة ولا تدخلها الحركة فهي مباينة لهما في حقيقة واقعها وفي التصور العقلي مثل الخالق الأول ومثل ضروب الملائكة .

٥ـ العلم الكلي : يبحث في أمور قد تخاط المادة وقد لا تخالطها فتكون موجودة فيما يخالط المادة وفي ما لا يخالطها كالوحدة والكثرة والكلي والجزئي والعلة والمعلول . وهذا هو العلم النظري .

وأما العلم العملي فمنه يعلم كيفية ما يجب أن يكون عليه الإنسان ويشتمل على :-

١ـ علم الأخلاق : ومنه يعلم كيفية ما يجب أن يكون عليه الإنسان في نفسه و أحواله حتى يكون سعيداً في دنياه وفي أخرته .

٢ـ تدبير المنزل : ومنه يعلم ما ينبغي على الإنسان أن يسلكه مع غيره سلوكاً جزئياً يكون في المنزل .

٣ـ تدبير المدينة : ومنه يعلم ما ينبغي على الإنسان أن يسلكه مع غيره سلوكاً كلياً يكون في المدينة .

٤ـ النبى : وهو الذي يسن الشرائع العامة التي تقتن تدبير المنزل وتدبير المدينة معاً .[1]

هذا هو تصنيف " ابن سينا " للعلوم نلاحظ عليه أنه نفس التقسيم الذي ذكره أرسطو ، كما أنه عين التقسيم الذي أورده الغزالي ، إلا أنه يلاحظ عليه :-

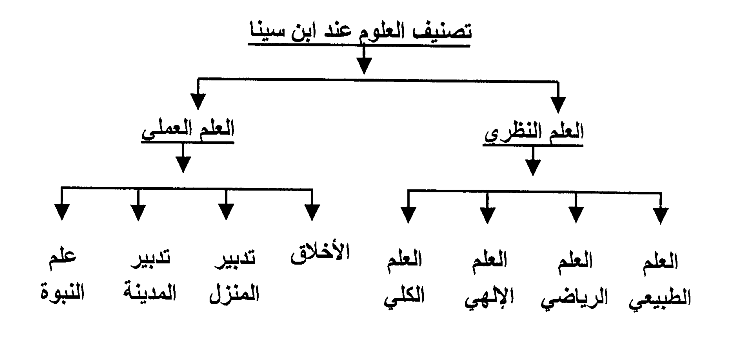
---

(١) أنظر : منطق المشرقين . لابن سينا ص ٥ ـ ٨ ، الفلسفة الإسلامية في المشرق . د. حامد على الخولي صـ ٢١٤ ـ ٢١٥ ـ الشرق الأوسط للطباعة .

أ - أنه جمع بين العلوم النظرية والعلوم العملية في رباط محكم .
ب - أنه أضاف إلى الحكمة النظرية قسماً رابعاً يسميه بالعلم الكلي ، يبحث في أمور ومعان قد تخالط المادة ، وقد لا تخالطها . مثل الوحدة والكثرة والكلي والجزئي .
جـ- كما أنه أضاف إلى الحكمة العملية قسماً آخر يسميه بالصناعة الشارعة أي النبوة . وما ينبغي أن تكون عليه .
د- أنه مما يحسب "لابن سينا " في تصنيفه للعلوم أنه لم يغب عن ذهنه أنه سيعترض عليه بجعله الصناعة الشارعة قسماً من أقسام الحكمة العملية لهذا نراه يدفع هذا الاعتراض فيقول : وليس قولنا : (وما ينبغي أن تكون عليه) مشيراً إلى أنها صناعه ملفقة مخترعه ليست من عند الله ، ولكل إنسان ذي عقل أن يتولاها ، كلا ! بل هي من عند الله ، وليس لكل إنسان ذي عقل أن يتولاها . ولا حرج علينا إذا نظرنا في أشياء كثيرة – مما يكون من عند الله – أنها كيف ينبغي أن تكون [1].

وفيما يلي رسم توضيحي لتقسيم العلوم عند " ابن سينا " .

(١) أنظر : منطق الشرقيين لابن سينا صـ ٦ ـ ٨ تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية . الشيخ . مصطفي عبد الرازق صـ ٦٤- ٦٥ . مطبعة لجنه التأليف والترجمة والنشر . ط ٣ . تمهيد للفلسفة . د. محمود زقزوق صـ ٦٤- ٦٥ .


تصنيف العلوم عند ابن سينا
العلم النظري
العلم العملي
العلم الطبيعي
العلم الرياضي
العلم الإلهي
العلم الكلي
الأخلاق
تدبير المنزل
تدبير المدينة
علم النبوة

تصنيف العلوم عند الفلاسفة المحدثين

١- تصنيف بيكون [١].

يعد تصنيفه للعلوم الفلسفية أول تصنيف للعلوم الفلسفية في العصر الحديث واللافت للنظر فيه الأساس الذي قام عليه ، فقد أقامه ورتبه بحسب قوانا الداركة وهو بهذا قد تخطي الأساس الأرسطي للتقسيم ، وهو اعتبار أغراضنا من المعرفة أساساً للتصنيف ، وأعتمد " بيكون " أساساً أخر للتصنيف وهو القوي العقلية المدركة ، وقرر أن البحث السيكولوجي يجب أن يكون أساساً لكل فلسفة ولكل علم [٢] .

وقد أرتضى " بيكون " هذا التصنيف لكونه اعتمد على " مبدأ عام ذاتي مبني على أساس تعدد القوي المدركة لدي الإنسان ، والتي تتمثل في الذاكرة والمخيله والعقل ، وقد جعل " بيكون " لكل منها علماً خاصاً يكون موضوعاً لها ، فالتاريخ موضوع الذاكرة ، والشعر ودراسته موضوع المخيله ، والفلسفة موضوع العقل" [٣]
وهذا تقسيم مجمل يحتاج إلى تفصيل : -

أولاً : *ينقسم التاريخ الذي هو علم الذاكرة إلى قسمين* :

أ- قسم يتعلق بالإنسان وهو التاريخ المدني .
ب- قسم يتعلق بالطبيعة وهو التاريخ الطبيعي .

---

(١) فيلسوف إنجليزي ولد عام ٩٦٨هـ - ١٥٦١م وتوفي عام ١٠٣٥هـ - ١٦٢٦م تعلم في كمبريدج ودرس المحاماة وشارك في الحياة السياسية والوطنية ، وقد ترك عدة مؤلفات منها في الأخلاق والسياسية ، بحث في قيمة وتطور العلوم ، أحداث الزمان وغير ذلك (انظر : موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأجانب . ط ١ صـ ٣٠٥-٣٠٧ . أعلام الفلسفة كيف نفهمهم . د. هنري توماس . ترجمه متري أمين . مراجعه وتقديم . د/ زكي نجيب محمود صـ ٢٠٤ . ٢٠٥ . دار النهضة العربية ١٩٦٤م) .
(٢) انظر : تمهيد الفلسفة د. محمود حمدي زقزوق صـ ٦٦ . مكتبة الأنجلو المصرية ط ٣ ١٩٨٦م .
(٣) دراسات في الفلسفة الحديثة . د. محمود حمدي زقزوق صـ ٤٠ . دار الفكر العربي ط ٣ ١٤٠٤ هـ . ١٩٩٣م .

والتاريخ المدني ينقسم إلى قسمين : -

أ- تاريخ كنسي : وهو خاص بالكنيسة وما يتصل بها من مراسم ولاهوت ، وينقسم إلى أربعه أقسام وهي : -

١- تاريخ الكنيسة بصفة عامه .
٢- تاريخ النبوات .
٣- تاريخ العناية الإلهية والرسائل .
٤- التاريخ الأدبي ويشمل الحكم والخطب .

ب- تاريخ الإنسان : ويتناول التراجم والحياة السياسية والأدبية والاجتماعية والفكرية عبر التاريخ ، وينقسم بحسب الوثائق المستخدمة فيه إلى ثلاثة أقسام : -

١- المذكرات وتكون التاريخ غير العام وهي تتكون من :-
أ- التراجم الشخصية . ب- السجلات .
٢- العاديات : وتكون التاريخ المطموس أي بعض الآثار التي بقيت .
٣- التاريخ التام : وهو ينقسم حسب موضوعه إلى ثلاثة أنواع هي :
أ - ما يعرض للأحداث حسب تسلسلها الزمني .
ب - ما يعرض لحياة الأشخاص .
جـ - ما يروي حدثاً من أحداث التاريخ .

وأما التاريخ الطبيعي:-

فيختص بدارسة الأفلاك والمعادن والفنون وينقسم إلى ثلاثة أقسام :
أ- وصف الظواهر السماوية والأرضية .
ب- وصف المسوخ فإنها تكشف عن القوي الخافية في الحالات العادية.
جـ- وصف الفنون فإنها وسائل الإنسان لتغيير مجري الطبيعة وهي تستخدم القوي الطبيعية [1] .

---

(١) أنظر : تاريخ الفلسفة الحديثة . يوسف كرم صـ ٤٥- ٤٦ . دار المعارف ط ٥ .دراسات في الفلسفة الحديثة . د. محمود زقزوق صـ ٤٠ . مدخل إلى الفلسفة . د. احمد رمضان صـ١٣٨ ـ ١٣٩ .

ثانياً : الشعر وهو علم المخيلة وينقسم إلى :-

أ- الشعر القصصي .

ب- الشعر الوصفي .

جـ- الشعر التمثيلي .

د- الشعر الرمزي [١]

ثالثاً : الفلسفة وهي موضوع العقل ، وتنقسم إلى ثلاثة أقسام :

(١) طبيعية (٢) إلهية (٣) إنسانية

أولاً : الفلسفة الطبيعية : تنقسم إلى قسمين : -

١-ما وراء الطبيعة أو علم العلل الصورية والغائية .

٢-الطبيعة بالمعني الخاص وتعني بالعلل المادية والفاعلية .

ثانياً : الفلسفة الإلهية : وهي تختص بدارسة المبادئ العامة المشتركة بين شتي العلوم ، كما تدرس الإلهيات التي تختص بالله تعالي وصفاته .

ثالثاً : الفلسفة الإنسانية : وتنقسم إلى : -

١- علم العقل : وهو (المنطق) .

٢ - علم الإرادة وهو (الأخلاق) .

ويري " بيكون " أن هذه الموضوعات الثلاث لقوي الإدراك يجب أن يمر بها العقل في تكوينه للعلوم ، وقد مر فعلاً بمرحلتي التاريخ والتأريخ ، بينما تبقي المرحلة الثالثة والتي يجب على العلماء إنجازها والمرور بها [٢] .

---

(١) أنظر : تاريخ الفلسفة الحديثة . يوسف كرم صـ ٤٦ . الفلسفة الحديثة عرض ونقد . د. أحمد رمضان صـ ٨٣- ٨٤ . مكتبة الإيمان بالمنصورة .

(٢) أنظر: دراسات في الفلسفة الحديثة . د . محمود زقزوق صـ ٤٠ ــ ٤١ .

ويلاحظ على هذا التصنيف ما يلي : -

١ - أنه جاء على درجة عالية من التنظيم والدقة .

٢ - أنه جمع بين الناحية النظرية والناحية العملية .

٣ - أنه خالف أرسطو في تصنيفه للعلوم فقد جعل أساس تقسيمه القوي المدركة العقلية .

٤ - أنه اعتمد على مبدأ ذاتي لا موضوعي . فقد رأي أن البحث السيكولوجي يجب أن يكون أساساً لكل فلسفه لكل علم [١] .

٢ - تصنيف " ديكارت " [٢] .

قدم لنا " ديكارت " تصنيفاً للمعرفة يقوم على فكرة الأصل الواحد للعلوم المختلفة من خلال تشبيهه الشهير بأن الفلسفة تشبه الشجرة . ويتضح من كتاب (مبادئ الفلسفة) لـ " ديكارت " أن التصنيف الذي يقدمه لنا في هذا الكتاب ليس تجريداً نظرياً بقدر ما هو خطه عملية من حيث إن المرء – كما يخبرنا " ديكارت " – لا يجني الثمرات من جذور الأشجار ولا جذوعها بل من أطراف فروعها فكذلك أكبر منفعة للفلسفة تعتمد على أجزائها التي لا يستطيع تعلمها إلا في أخر الأمر [٣] .

فالفلسفة عنده بفروعها المختلفة تشكل وحدة واحدة أو كلاً متكاملاً . وتنقسم إلى عدة أجزاء وهي : -

---

(١) أنظر : المصدر السابق صـ ٤١ – الفلسفة الحديثة عرض ونقد . د. أحمد رمضان صـ ٨٤- ٨٥ .

(٢) ولد عام ١٩٠٦بفرنسا ولد عليلاً فقد ورث عن أمه سعالاً لازمة إلى ما بعد سن العشرين وقد عرف عنه حبه للعلم والمعرفة وتوفي ١٩٥٠م بعد أن ترك عده مؤلفات منها ، مقال عن المنهج . التأملات في الفلسفة الأولي . كتاب العالم . وغيرها (أنظر : أعلام الفلسفة . هنري توماس صـ ٢١٣ . دراسات في الفلسفة الحديثة . د . محمود زقزوق صـ ٨٨).

(٣) أنظر : مدخل إلى الفلسفة . د. أحمد رمضان صـ ١٤٥ .

أ- الميتافيزيقا : وتشتمل على مبادئ المعرفة التي من جملتها تفسير كلام الله تعالى وصفاته ، وروحانية النفوس وجميع المعاني الواضحة فينا .

ب- الفيزيقا : ويبحث فيها على العموم بعد أن يكون المرء قد وجد المبادئ الحقة للأشياء المادية عن ماهية الكون كله، وبوجه خاص عن طبيعة هذه الأرض وطبيعة جميع الأجسام التي توجد حولها مثل الهواء والماء والنار والمغناطيس والمعادن الأخرى ، وبعد ذلك يبحث المرء عن طبيعة كل من النبات والحيوان وعن طبيعة الإنسان بوجه خاص حتى يستطيع بعد ذلك أن يجد العلوم الأخرى النافعة له[١].

والملاحظ على هذا التصنيف أنه قد وضع الميتافيزيقا على رأس العلوم ، كما أنه جعل الأخلاق أخر مراتب الحكمة على خلاف أرسطو الذي نظر إلى ما بعد الطبيعة على أنه علم متأخر على الطبيعة .

يقول " ديكارت " : فالفلسفة بأثرها أشبه بشجرة جذورها الميتافيزيقا وجذعها الفيزيقا ، والفروع التي تخرج من هذا الجذع هي كل العلوم الأخرى التي تنتهي إلى ثلاثة علوم رئيسية هي الطب ، الميكانيكا ، الأخلاق ، وأعني الأخلاق الأرفع والأكمل التي لما كنت تفترض معرفة تامة بالعلوم الأخرى وقد بلغت المرتبة الأخيرة من مراتب الحكمة [٢].

هذا هو تصنيف ديكارت يمتاز بالدقة والبساطة أكثر من تصنيف " بيكون " إلا أنهما يتفقان معاً في أساس التصنيف وفي

---

(١) أنظر : مبادئ الفلسفة . ديكارت . ترجمه د. عثمان أمين صـ ٤٢ – ٤٣ . دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٧٥م .

(٢) أنظر مبادئ الفلسفة . ديكارت . ترجمة . د. عثمان أمين صـ ٤٣ . دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة ١٩٧٥م .

الفكرة الموجه لـه والقائلة : بأن العلوم إنما تنشأ لخدمة الإنسان وتحقق منفعته الرئيسية وتمكينه من السيطرة على الطبيعة حتى يستكمل رفاهيته وتحقق سعادته ، ومن ناحية أخري نرى أن ديكارت يسير من البسيط إلى المعقد ، فالأخلاق وهي نهاية العلوم تعتبر من أكثر العلوم تعقيداً فهي تعتمد على ما سبقها من علوم [1].

٣- تصنيف " هيجل "[2].

يعد تصنيف " هيجل " أهم تصنيف للعلوم الفلسفية فى العصر الحديث على حد تعبر " أزفلد كولبه " حيث فرق فيه بين العلم الذي يبحث في مطلق المعرفة ونشاتها وبين أي شرح خاص لبعض مسائلها.

وقد قسم :" هيجل " *العلوم إلى ثلاثة أقسام* : -

١- المنطق ، أو علم الفكرة الشامله في ذاتها ولذاتها .

٢- فلسفة الطبيعة ، أو علم الفكرة الشاملة في الأخر .

٣- فلسفة الروح أو علم الفكرة الشاملة ، وقد عادت من الأخر إلى نفسها .

والفكرة الشاملة تعني عند " هيجل " العقل ، وبهذا نستطيع أن نفهم أقسام الفلسفة عند " هيجل " .

فالقسم الأول : وهو المنطق يدرس العقل الخالص أي المجرد تماماً من كل أثر من مادة فهو يدرس الفكرة الشاملة أي العقل

---

(١) أنظر : الفلسفة ومباحثها . د. أبو ريان صـ ١٢٣ .

(٢) ولد جورج فيلهيلهم فريدريش هيجل في ٢٧ أغسطس سنه ١٩٧٠م بألمانيا وتوفي عام ١٨٣١م. وكان أبوة يعمل مراقبا بالضرائب ، وقد ترك جملة من المؤلفات منها ظاهريات الروح . علم المنطق . فلسفة القانون . علم الجمال . (أنظر هيجل . عبد الفتاح الديدي صـ ١٠٠٩ ط دار المعارف مصر . هيجل أو المثالية المطلقة ٠ د. زكريا إبراهيم جـ١ صـ ٩٦ . مكتبة مصر ١٩٧٠ م) .

في ذاته (أي من حيث النسيج الذي تتألف منه) ولذاتها ، أي بغية الوقوف على عناصر هذا النسيج .

أما القسم الثاني : وهو فلسفة الطبيعة فهو يدرس العقل وقد تحول إلى ما هو أخر أي إلى المادة .

أماالقسم الثالث : وهو فلسفة الروح فإنه يدرس العقل حين يعود من الأخر (أعني من الطبيعة) . أي إلى حياته الروحية متحرراً من عبودية المادة [١] .

وهكذا يمر الفكر عند " هيجل " بخطوات أو مراحل ثلاث . فهو أي الفكر " يبدأ بذاتية مجردة ، أي بإدراكه بذاته المفردة ، ثم ينتقل إلى مجال يصادف فيه ما يناقضه ويعارضه ، ثم يخطو بعد ذلك إلى الوحدة التي تضمه وتضم معه اضداده التي مر بها في مرحلته الثانية . وليست تلك الحركة الثلاثية قاصرة على الفكر، بل إنها تتناول العالم بأسرة " [٢] .

٤ - تصنيف العلوم عند كونت [٣] .

تصنيف " كونت " للعلوم في القرن التاسع عشر هو أهم تصنيف ، حاول من خلاله أن يرتب العلوم وذلك تبعاً لبساطتها ، وقد ذكر ستة علوم أساسية رتبه على النحو التالي : -

" الرياضة ، والفلك ، فالطبيعة ، فالكيمياء ، فعلم النبات ، فعلم الاجتماع ، وكل واحد من هذه العلوم يرتكز على نتائج العلوم

---

(١) انظر : مدخل إلى الفلسفة ٠ د٠ إمام عبد الفتاح صـ ١٤١- ١٤٢ .
(٢) قصة الفلسفة الحديثة . د. زكي نجيب ، د . أحمد امين صـ ٢٤٣ .
(٣) أوجست كونت ولد عام ١٧٩٨م وتوفي عام ١٨٥٧م عرف عنه حبة للرياضيات وأظهر نبوغا فيها . وله عده مؤلفات منها . مقال في الروح الواقعي . دروس في الفلسفة الواقعية . (أنظر : تاريخ الفلسفة الحديثة . أوين القاري . ترجمة عبد المجيد عبد الرحيم عبد الرحيم صـ ١٧٢ ـ مكتبة الأنجلو المصرية ط ١ ١٩٨٥م . تاريخ الفلسفة الحديثة . يوسف كرم صـ ٣١٦) .

التي قبله وإذن فعلم الاجتماع هو من العلوم كلها ذروتها العالية ، ولا يبرر وجود علم من العلوم الأخرى إلا بمقدار ما يمدنا به من شرح وتوضيح لعلم الاجتماع ، وهكذا يري "كونت " أن العلم بمعني المعرفة اليقينية يسير على الترتيب السابق من موضوع إلى موضوع ، ومن الطبيعي أن تكون ظاهرة الحياة الاجتماعية المعقدة أخر ما يخضع للطرق العلمية (١).

وعلى الرغم من أن تصنيفه يعد أهم تصنيف للعلوم ، إلا انه يلاحظ عليه إغفاله لكثير من العلوم وفي مقدمتها علم النفس ، والعلوم التطبيقية ، وكذا الفنون ، وركز اهتمامه على الاجتماع ، والمتأمل في فلسفته يستطيع أن يقف على حقيقة هذا الأمر دون كبير عناء فهو عنده بمثابة حجر الزاوية ، وينظر إلية على انه " اللحظة الحاسمة في فلسفة كونت فكل فكرة لدية تستمد من هذا العلم ، وكل فكرة تؤول إلية ، وكما أن جميع المسالك في المذهب الأفلاطوني توصل إلى نظرية المثل ، كذلك تستطيع أن تلمح علم الاجتماع دائماً من خلال طرقات المذهب الوضعي ، فما أشبهه بالمركز الوحيد الذي تتلاقى عنده فلسفة العلوم ، ونظرية المعرفة ، وفلسفة التاريخ وعلم النفس ، والأخلاق والسياسة ، والدين ، وبالإجمال تتحقق وحدة المذهب في هذا المركز ، وهذه الوحدة هي اصدق دليل في نظر كونت على صحة ذلك المذهب (٢).

واللافت للنظر في مذهب كونت هو إغفاله لعلم النفس ، وجعله من علم الفلك علماً أساسياً الأمر الذي عرضة للنقد يقول " يوسف كرم " ونلاحظ على هذا التصنيف أربع ملاحظات الأولى : أنه يبدأ بالكم ، الثانية : جعله من علم الفلك علماً أساسياً ،

---

(١) قصة الفلسفة الحديثة . زكي نجيب ، أحمد أمين . صـ ٣٠٤ . الناشر مكتبة النهضة المصرية .
(٢) فلسفة أوجست كونت ليفي . بريل صـ ٣٣٨ ترجمة . د. محمود قاسم ، والسيد محمد بدوي . نشر مكتبة الأنجلو المصرية .

الثالثة : إهماله لعلم النفس ، الرابعة : إنكاره أصالة الظواهر النفسية [١] .

إلا أن رفض كونت إدخال علم النفس ضمن العلوم الوضعية وذلك انسياقا مع المذهب الواقعي " الذي لا يعترف بالنفس ، فلذلك قسم أفعال الإنسان إلى أفعال عضوية أو حيوية . جعلها جزءاً من علم الحياة ، وأفعال فكرية جعلها جزء من علم الاجتماع [٢].

وقصارى القول حول تصنيف كونت للعلوم هو ما عبر عنه بعض الباحثين بقولة :

إن كونت جعل من تصنيفه للعلوم وسيله لفرض فلسفته الوضعية ، وتكملة لقانون الحالات الثلاث ، وهو بهذا التصنيف أخرج الفلسفة نهائياً من الإطار العملي ، وذلك تقديراً منه للمنهج الوضعي فقد أشار إلى أن هذا المنهج يستهدف دراسة الظواهر لا الأشياء ذاتها ، ثم أقام دراسة الظواهر على المنهج العلمي القائم على الملاحظة والتجربة . [٣]

٥- تصنيف أزفلد كولبه [٤].

قسم " كولبة " في كتابة " المدخل إلى الفلسفة " العلوم الفلسفية إلى علوم فلسفية عامة وعلوم فلسفية خاصة :

١ - العلوم الفلسفية العامة وتشتمل على ما يلي : -

أ- علم ما بعد الطبيعة أو الميتافيزيقا : وهو مبحث الوجود أو الأنطولوجيا .

ب-نظرية المعرفة أو الإستمولوجيا .

---

(١) أنظر : تاريخ الفلسفة الحديثة يوسف كرم صـ ٣٢١- ٣٢٢ .

(٢) الفلسفة العامه ومباحثها . د. محمد أبو ريان صـ ١٢٨ . ط دار المعرفة الجامعية ط ٤ ١٩٧٩م

(٣) انظر : الفلسفة العامه ومباحثها . د. محمد أبو ريان ١٢٩- ١٣٠ .

(٤) ولد بألمانيا عام ١٨٦٢م وتوفي عام ١٩١٥م عرف عنه حب العلم وشوقه للمعرفة وقد ترك مؤلفات متعددة منها المدخل إلى الفلسفة ، التحقق . وغيرها (انظر : المدخل إلى الفلسفة – أزفلد كولبه مقدمة المعرب صـ جـ - ط من المقدمة) .

٢ - العلوم الفلسفية الخاصة وتشتمل على ما يلي :-

أ- علم المنطق : وهو يبحث في القواعد التي ينبغي توافرها في التفكير .

ب - علم الأخلاق : وهو يبحث في القواعد التي ينبغي توافرها في السلوك .

جـ-علم الجمال : وهو الذي يبحث في المعايير التي تقوم بها الأثر الفني ، وعلم الأخلاق وعلم الجمال يدرسان في مبحث خاص بهما هو مبحث الإكسيولوجيا ، أو مبحث القيم ، ويضيف " كولبه " إلى هذا بعض التصنيفات الفلسفية الخاصة مثل : -

أ - علم النفس . ب - فلسفة الطبيعة .

جـ - فلسفة القانون د - فلسفة الأديان .

هـ - فلسفة التاريخ .

ويلاحظ على هذا التصنيف أنه لم يدخل فيه علم الاجتماع حيث جعله ضمن فلسفة التاريخ .

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أن هذا التصنيف امتاز بالبساطة والوضوح [(١)].

تعقيب :-

بعد هذا العرض لتصنيفات العلوم الفلسفية عبر العصور المختلفة تتضح لنا عدة أمور أهمها :-

أ - وجود تصنيفات متعددة ومتباينة بين الفلاسفة ، وهذا راجع إلى تعدد تعريفات الفلسفة ، فقد اختلفت وجهات النظر في أقسام الفلسفة ومرد هذا الاختلاف في تعريفها ، فلا يوجد

---

(١) انظر : المدخل إلى الفلسفة . أ زفلد كولبه صـ ٢٣ ، مقدمة في الفلسفة العامة د. يحيى هويدي صـ ٦٣ . دار الثقافة للطباعة والنشر . ط ٩ / ١٩٩٩م .

بين هذه التعاريف على كثرتها واختلافها من عصر إلى آخر لا يوجد بينها تعريف جامع مانع . فتعريف الشيء " نطاق يضرب حوله الشيء ، يحصر داخله جميع العناصر المكونة له ، ويمنع كل ما هو أجنبي عنه عن الدخول فيه ، فإذا تواردت تعاريف مختلفة على الشيء الواحد ، وكان معنى ذلك عدم الإتفاق على ما هو داخل فيه وعلى ما هو خارج عنه " [١] .

يقول أزفلد كولبه :

" يجب أن يخضع أي تصنيف للعلوم الفلسفية دائماً لتعريف من تعريفاتها . ولذلك كان للفروق بين التعريفات ... فروق موازية لها في تصنيفات العلوم الفلسفية " [٢]

ب - إن الفلسفة كانت أم العلوم فكانت أشبه ما تكون بشجرة تتفرع عنها كل العلوم ، ثم حدث أن انفصلت العلوم تدريجياً فانفصلت عنها العلوم الطبيعية ، ثم علم النفس ، فعلم الاجتماع ، وقد جاء هذا الانفصال . نتيجة حتمية وذلك نظراً لطبيعة المنهج الجديد الذي استخدم في العلوم الإنسانية ، وهو المنهج التجريبي القائم على لملاحقة والتجربة .

جـ - أن التصنيفات التي قام بها الفلاسفة للعلوم الفلسفية على الرغم من اختلافها من فيلسوف لأخر ، ومن عصر لآخر لا تنفي تأثر اللاحق بالسابق ، فهو أمر طبيعي . فقد جرى العرف على ذلك . كل يأخذ بمن سبقه ويتأثر به . وقد يضيف إليه ويجدد فيه فكره وقد يعدل في آرائه .

---

(١) التفكير الفلسفي الإسلامي د . سليمان دينا صـ ٢٤٩ م .
(٢) المدخل إلى الفلسفة . أزفلد كولبه صـ ١٦ .

الباب الثاني

مباحث الفلسفة


الفصل الأول
مبحث الوجود

مبحث الوجود (الأنطولوجيا)

تمهيد :

يقصد بمبحث الوجود البحث في طبيعة الوجود على الإطلاق . فالبحث في الموجودات لا يتناولها من ناحية صفاتها وخصائصها المختلفة إنما يتناول معنى واحداً فقط هو كون هذه الأشياء موجودة فحسب" وترجع تسميه هذا المبحث بالأنطولوجيا إلى بداية القرن السابع عشر على يد " جو كلينيوس "فقد أورده في قاموسه الفلسفي ١٦١٣م كما يطلق عليه مبحث الأمور العامة"[١] .

ويرجع مبحث الوجود أو الأنطولوجيا من حيث الموضوع إلى الفلسفة الأولى لدي " أرسطو " التي كانت تبحث في الموجود بما هو موجود أي مجرداً من حيث هو موجود .

وقد كانت الآنطولوجيا مرتبطة لدي أرسطو بالنظر في موضوع الموجود الأعم "الإلهي" واجب الوجود أي بالعلم الإلهي وكان هذان المبحثان (الآنطولوجيا والعلم الإلهي) يشكلان معاً جوهر فلسفته الأولي التي عرفت فيما بعد باسم الميتافيزيقا .

والميتافيزيقا لفظ يوناني شاع استخدامه بصيغته اليونانية في اللغات الأوربية الحديثة ، ولفظ الميتافيزيقا إذا ما ترجم حرفياً (ما بعد الطبيعة) .

والواقع أن كلمه الميتافيزيقا ليست من وضع أرسطو نفسه فقد ظهرت هذه الكلمة في القرن الأول قبل الميلاد حينما قام المصنف " اندرو نيقوس " بترتيب مؤلفات أرسطو وتصنيفها فلما وصل إلى أهم مؤلفات أرسطو التي تتناول البحث في الأمور العامة وتنظر في الوجود مطلقاً ، وضعها بعد كتاب أرسطو " علم الطبيعة " وجعل

(١) انظر : تمهيد للفلسفة د. زقزوق صـ ١٦٥.

عنوانها عبارة غير محددة معناها " ما بعد الطبيعة " باليونانية ميتافيزيقا ، يعني بذلك المؤلفات التي تلي " علم الطبيعة " في ترتيب مؤلفات أرسطو فكان إطلاق هذا الاسم على ذلك النوع من البحث إطلاقاً عرضياً اعتباطياً ؛

أما الاسم الذي كان يطلقه أرسطو نفسه فليس هو الميتافيزيقا أو ما بعد الطبيعة بل هو الفلسفة الأولى أو الإلهيات أو العلم الإلهي . (١)

ومعني هذا أن كلمة ميتافيزيقا كانت في نشأتها الأولي تدل على أسم كتاب إلا أنه مع مرور الزمن تطورت الكلمة فأصبحت تدل على موضوع خاص بها وهو ما وراء الطبيعة .

علاقة مبحث الوجود بما وراء الطبيعة .

يراد بما بعد الطبيعة (أو الفلسفة العامة أو الميتافيزيقا) البحث في مشكلات الوجود اللامادي وعلله الأولي ، وغايته القصوى ، ونحو ذلك من موضوعات مجردة مفارقة للمادة ، ولا يراد بالوجود عوارض الموجودات في عالم الحس .

فالمفكر حين يتجاوز النظر في هذا العلم الذي يدركه بحسه إلى ما وراءه حيث يوجد عالم المعقولات ، وينشد العلم في مبدئه الأول ، وعلته القصوى ، أي حين يتخطى ما في العالم من تغيير وكثرة وتنوع ، إلى ما فيه من ثبات ووحدة وتجانس حين يفعل ذلك يكون فيلسوفاً ميتافيزيقياً .

والوجود نفسه لا يحتمل التعريف فإدراكه هو الدليل عليه ، وإذا أدرك الإنسان معنى التفكير أدرك الوجود في غيرة وفي ذاته بغير وسيط .

---

(١) انظر : محاولات فلسفية د . عثمان أمين صـ ٥٩ ـ ٦٠ . نشر مكتبة الأنجلو ط٢ ١٩٦٧م

وقد وحد بعض مؤرخو الفلسفة بين مبحث الوجود وما بعد الطبيعة ؛ لأن فلسفة القدماء تتميز بأنها فلسفة وجودية إذ أنها تناولت بالبحث المبدأ الذي صدر عنه الوجود ، والمصير الذي ينتهي إليه ، وإن لم تغفل البحث في مجالات المعرفة .

ومن المؤرخين من وحد بين ما بعد الطبيعة ونظرية المعرفة فالاتصال بين المشكلة الوجودية والمشكلة المعرفية وثيق ؛ لأن البحث في قدرتنا على معرفة الأشياء يسلمنا إلى البحث عن مقومات الوجود وماهية الحقيقة .

ولما كانت قوي الإدراك الإنساني من حواس وعقل تتجه في أول أمرها إلى العالم الخارجي الذي تقتضي حياة الإنسان أن يلائم بينه وبين نفسه . فالبحث في مشكلة الوجود تنشأ قبل البحث في مشكلة المعرفة . فبعد ما فرغ الإنسان من التأمل في الموجودات شرع بعد ذلك في تأمل ذاته [١] .

وربما كان أرسطو هو أول من حدد خصائص هذا العلم حين وصف الفلسفة الأولي – أي الميتافيزيقا – بأنها : البحث في الوجود بما هو وجود ، اعني بغض النظر عن خصائصه الجزئية ، أو مظاهرة الحسية ، فسواء أننا نتحدث عن الشجرة أم المنزل أم هذه البرتقالة ، أم العالم ، فإن هناك صفة أساسيه تسبق أي صفة أخرى لابد أن تتصف هذه الموجودات جميعاً .

والعلم الذي يدرس هذه الصفة هو العلم الذي يسقط من حسابه التفصيلات والاختلافات ، والفروق الجزئية التي يمكن أن تكون موضوعاً لعلوم أخري لكي يركز دراسته على خاصية واحدة هي الوجود . فهو إذاً يدرس الوجود من حيث هو وجود بغض النظر عن أي اعتبار آخر .

---

(١) أسس الفلسفة د. توفيق الطويل صـ ٢٣١ .

ومعني ذلك : أننا نستطيع أن نصف علم الوجود بأنه علم الوجود المجرد ، أو علم الوجود الخالص لأنه لا يدرس الوجود المتعين ، أو المحدد في هذه الشجرة أو هذه البرتقالة وإنما يدرس الوجود بصفة عامة فهو وجود مجرد من الخصائص الجزئية الحسية ، وهو وجود خالص لا أثر فيه لموجودات الحس أو علم الوجود عموماً ، أو الوجود بعض النظر عما يتمثل فيه من موجودات ... ولهذا فإن أرسطو يطلق عليه " العلم الأول " بمعنى : أنه هو المفروض منطقياً في أي علم آخر ، فعلم الطبيعة ، وعلم الكيمياء ، وعلم الفلك ، وعلم النبات أو الحيوان تفترض كلها علم الوجود فهو يسبقها بالضرورة . إذ يستحيل عليك أن تبحث في أي شيء كائناً ما كان إلا إذا كانت لـه صفة الوجود أولاً فهذه الصفة سابقة منطقياً على كل ما عساك واضعة موضوع البحث . سابقة على النبات والحيوان ، والأفلاك والعناصر الكيميائية بمعني أن ذلك كله لابد أن يتصف بالوجود أولاً ، ولهذا فإننا نجد أن أرسطو يطلق على البحث في الوجود بما هو موجود اسم الفلسفة الأولي . بينما يطلق على هذه الموضوعات الطبيعية اسم الفلسفة الثانية ، كما انه يطلق على علم الوجود أيضاً اسم علم الحكمة بمعنى أنه الغاية التي تسعى إليها العلوم الأخرى في بحثها ، وهذا معناه أن العلوم المختلفة – بالإضافة إلى قيام كل منها ببحث موضوعه الخاص – تقوم بواجب أخر تخرج به عن حدود بحثها الخاص وهو أن تحاول الوصول إلى علم الوجود فدارس العلوم لا يبدأ بالوجود بل ينتهي إليه وبذلك سيكون هو الغاية الأخيرة التي يتجه نحوها الدارس في رحلته ، بل إن كل مراحل دراسته السابقة ليست إلا إعداداً لدراسة هذا العلم الأخير – علم الوجود – الذي هو (الحكمة) الحقة ، وكل علم أخر ليس إلا وسيلة جزئية للوصول إليه .

ومعني ذلك أن " الأنطولوجيا " هو البحث في الواقع النهائي الذي يقبع خلق الظواهر المحسوسة ، أو قل إنها : البحث عن العلل الأولي والبعيدة للظواهر على اعتبار أن العلوم الجزئية المختلفة هي التي تبحث في العلل القريبة بهذه الظواهر [1] .

المذاهب الفلسفية في تفسير الوجود .

اختلفت الاتجاهات الفلسفية في تفسير الوجود ، وتباينت وجهات نظرهم بالنسبة لهذه المشكلة ، فظهرت مذاهب فلسفية متعددة كل منها فسر الوجود ووضع حلاً لإشكالاتهم من وجهة نظره الخاصة به .

فمنهم من نظر إليه نظرة مادية بحتة ، بينما نظر إليه البعض الأخر على أنه خلاف ذلك فالوجود روحي وبجانب هذا وذاك لاح في الأفق اتجاه رأى أنه يتكون من الجانبين وحول هذا المعنى يقول : الدكتور توفيق الطويل :

(اختلف الفلاسفة في فهمهم للوجود ، وتفسيرهم لطبيعته ، فتعددت مذاهبهم التي وضعوها حلاً لإشكلالاتهم .

فمن قائل : إن الوجود مادي في طبيعته ، ولا شيء في الوجود غير المادة ، والحياة والحركة ، وغيرهما مما يظن البعض أنها تشهد بوجود الروح أو العقل ليست في الواقع إلا وظيفة من وظائف المادة أو صفة من صفاتها ، فإذا انحلت المادة توقفت الحركة وانعدمت الحياة . والقائلون بهذا هم أصحاب المذهب المادي .

ومن الفلاسفة من رأى : أن الوجود روحي في طبيعته ، وليس فيه غير الروح أو العقل ، وأن المادة في كل صورها ليست إلا ظاهرة من ظواهر الروح . والقائلون بهذا هم أصحاب المذهب الروحي .

---

(١) انظر : مدخل إلى الفلسفة د. إمام عبد الفتاح ص ٣٢١ – ٣٢٣ .

وكلا الفريقين من الماديين والروحيين الذين يفسرون الوجود برده إلى أصل واحد هم أصحاب المذهب الواحدى .

ولكن بين الفلاسفة من رد الوجود إلى أصلين هما : المادة والروح معاً وأولئك هم أصحاب المذهب الثنائي (أو مذهب الإثنينية) .

ومن هؤلاء من أرجع الوجود إلى عدة أصول ، كأصحاب القول بالذرات – مادية أو روحية – أصلاً لهذا الوجود ، ويعتبر هؤلاء من أصحاب مذهب التعدد أو التكثر) [١].

وسوف نعرض فيما يلي لبعض المذاهب الفلسفية في تفسير الوجود . وهذه المذاهب هي : -

أ- المذهب المادي .

ب- المذهب الروحي .

جـ- المذهب الثنائي .

د- مذهب الكثرة أو التعدد .

أولاً : المذهب المادي :

من الضروري قبل التعرض للمذهب المادي الوقوف على معنى المادة ؛ والمادية ؛ والمادي . فنقول وبالله التوفيق :

كلمة مادة من الكلمات التي شاع استخدامها بين الناس وقد جري العرف على أن هذه اللفظة إذا اطلقت أنصرف الذهن إلى ذلك الشخص المعنى بمتع الحياة وزخارف الدنيا .

مفهوم كلمة مادة

كلمة المادة من الكلمات التي لم يرد ذكرها في القرآن والسنة وقد جاءت المادة . في اللغة : بمعنى الزيادة المستعملة ومادة الشيء

(١) أسس الفلسفة . د . توفيق الطويل صـ ٢٣٩.

ما يمده أي : أصوله وعناصره وقد دخلت الهاء للمبالغة . فالمادة كل شيء يكون مدداً لغيره [١] .

كما عرفها الجرجاني بقوله : هي الزيادة المتصلة[٢] .

وبالرجوع إلى المعجم الوجيز وهو أحدث المعاجم اللغوية نجد إنها تطلق على كل شيء يكون مدداً لغيرة ، وكل جسم ذي امتداد ووزن ويشغل حيزاً ، ومادة الشيء أصوله التي يتكون منها حسية كانت أو معنوية [٣] .

وعلي هذا يتضح لنا أن لفظ مادة في العرف اللغوي تدور حول المعاني الآتية :

أ- المدد .
ب- الزيادة المتصلة .
جـ- أصول الشيء وعناصره .

كلمة مادة في الاصطلاح :

تطلق كلمة مادة في الاصطلاح على اعتبارات عدة منها :

أن المادة هي كل ما يشعل حيزاً من الفراغ وله كتلة وثقل وامتداد.

فهي الجسم الطبيعي الذي تناوله على حالة أو نحوله إلى شيء أخر لغاية معينة مثل المرمر الذي يصنع فيه التمثال فهو مادته [٤] .

---

(١) انظر : لسان العرب . لابن منظور جـ ١ صـ ٤١٥٦ ـ ٤١٥٧ . دار المعارف . القاهرة .

(٢) انظر : التعريفات . للجرجاني صـ ٢٥٠ .دار الريان للتراث .

(٣) انظر : المعجم الوجيز صـ ٥٧٥. مجمع اللغة العربية بالقاهرة ط . خاصة بوزارة التربية والتعليم . ١٩٩٣م .

(٤) انظر : المعجم الفلسفي .د. جميل صليبا جـ٢ صـ ٣٠١ . دار الكتاب اللبناني ط٠ ١٩٧٣م .

وقيل بأنها تطلق ويراد بها معطيات التجربة الحسية من جهة ما هي مستقلة عن قوالب العقل ، فمادة الظاهرة عناصرها الحسية ، أما صورتها فهي العلاقات التي تضبطها وتنظم حدوثها .[١]

وقصارى القول في هذا أن كلمة مادة لدي الفلاسفة تعني ما يقابل الروح وهذا واضح في الثنائية [٢] التي قسمت الوجود قديماً إلى قسمين أحدهما مرئي ، والأخر غير مرئي ، وأطلق على الأول أجسام وعلى الثاني أرواح أو الأول يسمى بالطبيعة بينما الثاني يسمي ما راء الطبيعة .

من كل هذا يتضح لنا أن لفظ مادة تستعمل للدلالة على الطبيعة وهي مقابلة لما وراء الطبيعة حيث إنها مكونة من جسيمات كبيرة وصلبة ومتحركة وغير قابلة للاختراق ، ذات أحجام وأشكال مختلفة [٣] .

مفهوم المادية :

المادية مصطلح يطلق على المذهب القائل بأن الظواهر المتعددة للأشياء ترجع إلى أساس واحد هي المادة فهي أساس كل شيء ، ولا مكان لوجود روح قائمة بنفسها قد تتصل بالمادة أو تنفصل ، فقد مضي الزمان الذي كان يقال فيه بوجود روح مستقلة عن المادة [٤] .

" المادي "

---

(١) المصدر السابق . جـ ٢ . صـ ٣٠٧ .

(٢) الثنائية : هي اتجاه فلسفي يقول بازدواجية المبادئ المفسرة للكون كثنائية الأضداد ، وهو اتجاه قديم يتبناه فلاسفة عظام . (انظر : المعجم الفلسفي د. عبد المعنى صـ ٧٥-٧٦ . الدار الشرقية للطباعة والنشر ط١ ١٩٩٠) .

(٣) العلم في منظورة الجديد . روبرت م. أغروس ، ، جورج ن . ستانسيو ترجمة .د. كمال خلايلي صـ ١٩ سلسلة عالم المعرفة . العدد ١٣٤ . جماد الأخرى ١٤٠٩هـ - فبراير ١٩٨٩م . مطابع الرسالة الكويت .

(٤) مبادئ الفلسفة . أ.س. رايوبرت . ترجمة . أحمد امين ص ١٧٢- ١٧٣ . نشر مكتبة النهضة المصرية . ط ٨ ١٩٧١م .

مفهوم المادي :

باستقراء اللفظة يستطيع المرء أن يقف على حقيقة المادي . فهو المنسوب للمادة .

يقول بعض الباحثين : المادي ما ينسب للمادة وهو يقابل الروحي نقول : القوة المادية والقوي الروحية . [١]

فالمادي هو القائل بالمادة وحدها رافضاً ما عداها فهو يرى أن المادة منها وإليها مرد كل شيء فهي قبلته التي يتوجه إليها .

هذا وإذا كنا قد عرضنا لمفهوم المادة والمادية والمادي فيجدر بنا الآن أن ننتقل إلى الحديث عن نقطة أخري وهي الحديث عن مفهوم المذهب المادي .

مفهوم المذهب المادي

يطلق أسم المادي على مجموعة مختلفة من النظريات الفلسفية لهذا فإنه من الأفضل أن نذكر شيئاً إجمالياً عنها كلها ثم نختار من بينها النظريات التي لها علاقة بالميتافيزيقا .

للمذهب المادي صورتان أساسيتان : المذهب المادي النظري ، والمذهب المادي العلمي ، أما العلمي فهو يبحث في الغاية من الأفعال الخلقية ، أما المذهب المادي النظري فنوعان : نوع يضع القواعد للسير عليها في البحث في الوجود ، ونوع يضع نظرية ميتافيزيقية في طبيعة الوجود .

فأما الأول : فلا يعد وضع القاعدة التالية وهي أن البحث العلمي يجب أن يبدأ دائماً بالمادة ويعتبرها وحدها هي الوجود الحقيقي وأن بها وحدها يمكن تفسير أية حقيقة من الحقائق وقد أخذ بهذا جمع من الفلاسفة والمفكرين .

---

(١) انظر : المعجم الفلسفي .د. جميل صليبا جـ ٢ صـ ٣٠٨ .

أما النظرية الميتافيزيقية فتظهر في صورتين : المذهب الواحدي أو الفردي ، والمذهب الثنائي أو الثنوي وهذا الأخير يقرر وجود نوعين من المادة مادة كثيفة وأخري لطيفة ، مادة يغلب على طبيعتها القصور الذاتي ، وأخري يغلب عليها الحركة ، أما المذهب الواحدي فيقول بوجود نوع واحد من المادة له طبيعة واحدة . ولكنه ينقسم إلى ثلاثة أقسام بحسب وجهة نظر الفلاسفة في العقل وصلته بالجسم ، فمذهب يعتبر العقل صفة من صفات المادة ويعرف باسم " المذهب المادي الوصفي " وآخر يعتبر العقل معلولا للمادة ويعرف باسم " المذهب المادي العملي " وثالث يسوي بين الظواهر العقلية والظواهر المادية بأن يعتبر الأولي في جوهرها نوعا من الثانية ويعرف باسم المذهب المادي التكافؤي [1] .

ولا يعنينا هنا سوي القسم الميتافيزيقي من المذهب المادي النظري ، وفيما يلي عرض لصور المذهب المادي متبعين ذلك بحديث عن أشهر المدارس المادية قديماً وحديثاً ..

صور المذهب المادي :

المتتبع للمذهب المادي عبر العصور المختلفة يجد أنه أخذ عدة صور جاءت على النحو التالي :

١- المذهب المادي العلمي أو المادية في النظرة إلى الحياة : هذا المذهب يقرر أن الشيء الوحيد الذي يجدر بالإنسان أن يسعى إليه هو الخيرات المادية التي تجود بها الحياة ، فالسعادة الحقيقة للإنسان تكمن في المتعة الحسية والخيرات المادية ، ومن ثم فهم ينكرون كل الروابط والصلات الروحية .

(١) انظر : المدخل إلى الفلسفة . كولبه صـ ١٦٢ ـ ١٦٣ ، تمهيد للفلسفة د. زقزوق صـ ١٦٥ ـ ١٣٩

٢- المذهب المادي في مجال العلوم الطبيعية : ويتمثل هذا المذهب في سعي علماء الطبيعة بقدر الإمكان إلى فهم وتفسير كل الحوادث بصورة كمية رياضية ، وذلك من منطلق افتراض أن العالم تحكمه عليه ميكانيكية باعتبارها دائرة مقفلة .
٣- المذهب المادي الميتافزيقي : وهذا المذهب يفسر كل الحقيقة الواقعة التي تشمل العالم والإنسان تفسيراً مادياً [1] ، وهذا المذهب يأتي في صورتين :

الأولى : المذهب الواحدي :

وهو الذي يقول بوجود نوع واحد من المادة له طبيعة واحدة ، وينقسم هذا المذهب بحسب نظر الفلاسفة في العقل وصلته بالجسم إلى ثلاثة أقسام :-
أ - المذهب المادي الوصفي : وهو الذي يعتبر العقل صفة من صفات المادة .
ب - المذهب المادي العلّي : وهو الذي يعتبر العقل معلوماً للمادة .
جـ - مذهب المساواة المادية : وهو الذي يسوي بين الظواهر العقلية والظواهر المادية ، بأن يعتبر الأولي في جوهرها نوعاً من الثانية ، ويعرف باسم " المذهب المادي التكافؤى " .

الثانية : المذهب الأثنيني :

وهو الذي يقول بوجود نوعين من المادة ؛ إحداهما كثيفة والأخرى لطيفة ، كما أن إحداهما يغلب على طبيعتها القصور الذاتي ، والأخرى يغلب عليها الحركة [2].

---

(١) انظر : تمهيد للفلسفة . د. زقزوق صـ ١٧١ .
(٢) انظر : المدخل إلى الفلسفة كولبه صـ ١٦٢ .

٤- المذهب المادي الجدلي والتاريخي في الماركسية ، وهذه الأشكال والصور المختلفة للمذهب المادي ليست مستقلة تماماً بعضها عن بعض ، بل هي مرتبطة ببعضها بصورة جزئية على الأقل ، كما يؤثر بعضها في البعض الآخر [١].

(أ) المذهب المادي القديم :

لقد بدت النزعة المادية قديماً في المحاولات الأولي التي قام بها فلاسفة مدرسة الطبيعيين الأوائل الذين فسروا الوجود برده إلى الماء أو الهواء أو التيار أو غير ذلك إلا أن أول مذهب مادي في تاريخ الفلسفة كان عند " ديمقريطس " [٤٧٠ – ٤٠٠ –ق . م] وعرف باسم (المذهب الذري) . وفيه يذهب " ديمقريطس " (٤٦٠ – ٣٧٠ ق . م) إلى أن الذرات هي اللبنات المادية الصغرى لكل الحقيقة الواقعية ، ويوجد هناك خلاء بين الذرات تتحرك فيه وله في ذلك عبارة مشهورة تقول : لا يوجد في الحقيقة إلا ذرات وخلاء ، وتتكون النفوس البشرية أيضا من الذرات ، وإن كانت ذات دقيقة .

وعن طريق تلاقي الذرات وافتراقها يحدث الكون والفساد ، وليس هناك بين الذرات فروق نوعية ، وإنما هناك فقط فروق كمية ، وعلى سبيل المثال تلك الفروق التي تتعلق بالشكل والمقدار أما الشكل فلان منها المستدير والمجوف والمحدب والمقعر والأملس والخشن ونحو ذلك .

وأما المقدار فلأنه متفاوت رغم خلوه عن الثقل وعدم انقسامه ونتيجة لاختلاف الذرات شكلا ومقدارا ، ينشأ خلاء فاصل بينها هو متميز أيضاً بالمقدار والشكل .

---

(١) انظر : تمهيد للفلسفة د . زقزوق صـ ١٧١ .

أما عن نشأة الموجودات وفسادها فإن ذلك يحدث عن طريق الحركة الذاتية الموجودة في هذه الذرات إذ ينشأ عن حركتها في الخلاء غير المتناهي أن تجتمع هذه الذرات وتأتلف اتفاقاً في مجموعات هي الموجودات المحسوسة ، ثم تفترق فيكون فسادها وعدمها فوجود الكائنات وعدمها ينشأ عن اجتماع الذرات وافتراقها الناشئين عن الحركة ، وهكذا يستمر الوجود و العدم إلى غير نهاية .

أما تنوع الموجودات واختلاف في صفاتها فيفسره " ديمقريطس " باختلاف الجواهر المؤلفة لها في الشكل والمقدار .

أما النفس فهي مادية تتألف من أدق الذرات وأسرعها حركة وهي الذرات المستديرة التي تتكون منها النار ألطف المركبات وأكثرها تحركاً ، والنفس مبدأ الحياة والحركة ، إذ يدفع الهواء تلك الذرات اللطيفة النارية المنبثة فيه إلى الأجسام فتنتشر فيها وتتجدد بالتنفس في كل لحظة فتدوم الحياة والحركة بدوام النفس ، فإذا فقد بعض الذرات كان النوم أو الإغماء فإن فقدها كلها كان الموت [(1)].

ومعنى هذا أن هذا المذهب مادي بحت فلم يستثن من ذلك النفس الإنسانية ولا الآلهة فالجميع عنده مركب من ذرات . فلا وجود إلا للجسم المادي ، أما الروح المخالف للجسم المادي في طبيعته وصفاته ومكوناته فلا وجود له .

وقد انتشر هذا المذهب وصار له شأناً كبيراً في العالم القديم ، فقد أخذ به " أبيقور " (٣٤١- ٢٧٠ ق .م) الفيلسوف المادي الذي أنكر تدخل الآلهة في شئون العالم ، وسلم بأبدية المادة ، وبأنها تحتوي في جوفها على مصدر حركتها ، وبدأ يحيي من جديد

(١) انظر : أسس الفلسفة د . توفيق الطويل صـ ٢٤٠ ـ ٢٤٢ ، مدخل إلى الفلسفة د . امام عبد الفتاح صـ ٢٣٥ ، تمهيد للفلسفة د . محمود زقزوق صـ ١٧٣ ـ ١٧٤ ، الفلسفة ومباحثها د . أبو ريان صـ ٢٠٢ ـ ٢٠٤ ، مبادئ الفلسفة د . منال الرافعي صـ ٩٥ ـ ٩٦ ط ٢ ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م ، ديمقريطس . فيلسوف الذرة د. سامي النشار وآخرون صـ ٢٤١ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب بالإسكندرية .

المذهب الذري عند " لوقيبوس " و " ديمقريطس " مضيفاً إليه بعض التغيرات الخاصة به ثم ادعى أنه وليد فكره [١] .

والحق خلاف ذلك . فالمذهب المادي القديم ارتبط باسم ديمقريطس على الرغم من وجود بعض الفلاسفة تقدموا عليه مهدوا لظهور هذا المذهب بعد ذلك بهذه الصورة على يد ديمقريطس الذي جاءت فلسفته أساساً للمذهب المادي الحديث .

نقد مذهب " ديمقريطس " :

ليس هناك شك في أن المذهب الذري عند ديمقريطس خطا خطوات متقدمة فقد تطورت النزعة المادية عنده تطوراً كبيراً . فقد تناول ديمقريطس مسألة المادة الأساسية بشكل عبقري ومثمر للعصور اللاحقة وإن كان لم يستطع أن يحلها أيضاً كما اعتقد هو ذلك .

فقد أبان أن جميع الصفات التي توصف بها الأشياء بعد وجودها إنما ترجع إلى أصول جوهرية وأساسية في الذرات فلم يستثن أية مادة ، وبسبب هذه النزعة المادية المتطرفة تعجز الفلسفة الذرية عنده عن تفسر اختلاف طبيعة الموجودات فيما بينها مع أنها متشابهة في الكيف على حد قوله . [٢]

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فقد تناقض ديمقريطس مع نفسه عندما أشار إلى أن الذرات لا تنقسم مع أن بعضها أكبر من بعض .

فقد أبان علم الطبيعة الحديث أن الذرات تنقسم على خلاف ما اعتقده ديمقريطس .

---

(١) انظر : تاريخ الفلسفة اليونانية . أ / يوسف كرم ، صـ ٢١٦ .

(٢) انظر : دراسات في الفلسفة اليونانية أ . د / عبد الله الشاذلي ، د. رضا الرفيقي ، صـ ٧٠ . مطبعة الحرمين طنطا ١٤١٢٤هـ - ٢٠٠٣م .

يقول بعض الباحثين " فإن الكبير حجماً يمكن انقسامه إلى جزأين الجزء الصغير والزيادة التي كان بها أكبر من غيره "[(١)] .

هذا بالإضافة إلى أن تفسيره لكثرة الموجودات لا يفسر لنا إلا جانباً واحداً من جوانبه الكثيرة الممكنة .

فقد اعتقد أن كثرة الموجودات ترجع لتصادم الذرات مع بعضها في الخلاء ، فهو يكون مجموعات من الذرات متماثلة الأشكال ، ومعني هذا أن الكون للأشياء فإذا انحلت هذه المجموعات مرة أخرى كان في ذلك الهلاك والفناء [(٢)] .

وعلي هذا يتضح لنا قصور هذا المذهب وعجزه عن الوصول إلى إدراك صحيح ، وتفسير مقبول للوجود .

لهذا لا غرابة أن يكون هو المذهب المادي الإلحادي في كل عصر فهو لا يؤمن إلا بالمادة وحدها وينكر ما وراء الطبيعة ، ويفسر الوجود تفسير آلياً .

فهو ينكر العلة الفاعلة والسبب الغائي والعلة الموجود فلا مجال للحكمة والإتقان عنده .

فالعالم فيه نشاء عن طريق المصادفة هكذا اتفاقاً دون تدخل صانع حكيم ؛ بل إن العالم بما فيه أشبه ما يكون بمجموعة من النفايات تجمعت عن طريق المصادفة .

(ب) المذهب المادي الحديث :

إذا كان " ديمقريطس " يعد بحق الممثل الحقيقي للنزعة المادية الآلية في العصر القديم فإن " توماس هوبز " (١٥٨٨ – ١٦٧٩) الفيلسوف الإنجليزي يعتبر أكثر ممثل للمادية

---

(١) انظر تاريخ الفلسفة اليونانية . د . عوض حجازي وزميله ص ٥٣ . المطبعة المنيرية بالأزهر ط ١ ، ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م .

(٢) انظر : تمهيد للفلسفة . د . زقزوق ، ص ١٧٥ – ١٧٦ .

في العصر الحديث فهو يرد الموجودات كلها إلى المادة ، والتغير على اختلاف أنواعه إلى الحركة ، فهو يري أن المادة وحركاتها هي الحقيقة المطلقة في الوجود ، فالمادة هي الجوهر الأول الذي تألف منه الأشياء بفعل الحركة ، وحتى عمليات الذهن العقلية إن هي إلا حركات في المخ القلب والأعضاء الأخرى ، ولا شك أنه هنا يبدأ من حيث بدأ غيره من علماء الطبيعة (١) .

وكل حدث حقيقي يحدث في العالم إنما هو نوع من الحركة ، بل إن الاحساسات والأفكار ليست سوي حركات داخلية في جسم حي .

ويعد " هوبز " أحد الرواد الكبار الذين مهدوا للمذهب المادي في العصر الحديث ولكن النظرية المادية أخذت فيما بعد صور أخرى . وقد تطورت المادية الحديثة وبوجه خاص في فلسفة عصر التنوير في فرنسا فقد احتلت المادية الفرنسية في القرن الثامن عشر مكانه خاصة في الفلسفة المادية لتلك الفترة (٢)

وقد شاهد القرن التاسع عشر حركة إحياء للمذهب المادي حتى أصبحت هي فلسفة العصر السائدة ، ويمكن أن يطلق على مادية القرن التاسع عشر اسم مادية العلوم الطبيعية ، لأنها كانت تستند على هذه العلوم التي كانت قد تطورت تطوراً كبيراً .

فقد شهد القرن التاسع عشر تزايداً واسع النطاق في المعارف الطبيعية وتطبيقاتها العلمية . وبهذا طغي التفسير المادي كل الجوانب ، وأصبحت كل الحقائق تفسر تفسيراً مادياً (٣).

---

(١) انظر : الفلسفة ومباحثها . د . أبو ريان . صـ ٢٠٣ ـ ٢٠٤ .
(٢) انظر : المدخل إلى الفلسفة . كولبه ، صـ ١٦٤ .
(٣) انظر : تمهيد للفلسفة . د. زقزوق ، صـ ١٨٥ ـ ١٨٦ .

هذا وقد ظهر الاتجاه المادي عند بعض الفلاسفة المعاصرين الذين وصفوا فلسفتهم بالمادة الخالصة . أمثال الفلسفة الوضعية والبراجماتية .

نقد المذهب المادي الحديث :

١) لقد حاول فلاسفة المذهب المادي الحديث أن يستبعدوا كل علة غائية عند تفسيرهم للكون ، وأن يستبقوا العلل الفاعلية فقط ، ولكن العلة المادية الآلية ليست كافية ، فهناك حوادث لا تتحقق لأن العلة الغائية تصبح ذات أثر فعال .

والخطأ الذي وقع فيه الفلاسفة الماديون هم أنهم اعتبروا المادة حقيقة واقعة ظاهرة وليست مجرد فكرة ، ويجعلون المادة مركزا لجميع القوي التي تؤثر في حواسنا.

والواقع أن المادية عاجزة كل العجز عن تفسير أبسط العمليات العقلية ، فليس في وسعها أن تفسر تفسيرا معقولا كيف يصدر الإحساس عن الحركة ، والتفكير عن المخ وغير هذا من مزاعمها [1]. إنها عاجزة عن تفسير أبسط الأمور وأوضحها فكيف بمشكلات الوجود ومعضلاته ؟

إن وجود هذه القوة العقلية في حد ذاته دليل على وجود أصل غير مادي وراء هذا العالم .

٢) أضف إلى هذا أن المادة لا تصلح أن تكون علة لنفسها فمن باب أولى ألا تكون علة لغيرها . فمن المسلمات أن فاقد الشيء لا يعطيه وهي لا تملك من أمر نفسها شيئا فكيف بأمر غيرها.

---

(١) انظر : أسس الفلسفة د. توفيق الطويل ، صـ ٢٥٠ – ٢٥١ .

٣) أن هذا المذهب أغفل جانبا هاما وهو الجانب الروحي ، الذي يهذب الأخلاق ويرتقي بالأخلاق إلى أوج كما لها .

هذه بعض الانتقادات التي وجهت للمذهب المادي في العصر الحديث ، هذا ويمكن القول أن المذهب المادي الحديث الذي انتشر في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قد بدأ يتراجع بوضوح في عصرنا الحالي أو أخذ صورة أخرى في القرن العشرين تتمثل في المادية الجدلية والوضعية المنطقية والبراجماتية .

ثانياً : المذهب الروحي :

المذهب الروحي هو المذهب المقابل للمذهب المادي وقد نشأ المذهب الروحي في الفلسفة بعد المذهب المادي ، لأن العقل يتجه بطبيعته إلى المحسوس أولا ، ولكنه سرعان ما يتجاوزه إلى البحث فيما وراءه لكشف المجهول من أسراره والوقوف على كنهه .

ويختلف المذهب الروحي عن المذهب المادي في تفسير الوجود فبينما يفسر المذهب المادي الوجود تفسيراً ماديا يفسر المذهب الروحي الوجود تفسيرا روحيا ، ويري أن الظواهر المحسوسة ليست هي الحقيقة المطلقة ، وأن الطبيعة الحقيقية للوجود والتي تفسر هذه الظواهر الحسية هي الروح أم العقل [1].

ويمكن القول : بأن أول مذهب روحي في تاريخ الفلسفة اليونانية يرجع إلى أفلاطون وخاصة في نظرية المثل فقد اعتقد أفلاطون بوجود عالم معقول هو مثال للعالم المحسوس وأصله هذا العالم المعقول هو عالم المثل .

---

(١) انظر : الفلسفة ومباحثها د . أبوريان ، صـ ٢١٣.

والمثل عند أفلاطون هي موجودات حقيقة ذات طبيعة عقلية ، أما الموجودات المحسوسة فما هي إلا أشباح وأشباه لتلك المثل التي ليس لها وجود في العالم المحسوس بل إن وجودها يكون في عالم آخر هو عالمها – عالم المثل – وهو عالم معقول لا محسوس ، ومن ثم فهي لا يمكن إدراكها إلا بالعقل وحده .[1]

إلا أن المذهب الروحي اتضحت معالمه في فلسفة" ليبنتر" الذي يعتبر المؤسس الحقيقي للمذهب الروحي .

فقد ذهب " ليبنتر " إلى أن الموجودات تتألف من ذرات روحية يرجع إليها هذا الوجود وأطلق عليها اسم (المونادات) ومعناها الأجزاء التي لا تتجزأ ، ومن أجل ذلك فهي لا تقبل التجزئة بالفعل ولا في الذهن ، ولا تتعرض للفناء وتنزع دائما إلى العمل والحركة وتتميز بأنها بسيطة لا شكل لها ولا مقدار ، وبها تتكون الأشياء ، يوجدها خالق فتصدر منه كما يصدر النور عن الشمس ، وهي مدركة وإن كان إدراكها يتفاوت قوة وضعفا تبعا لتدرج الموجودات وهي كلها صادرة عن (الموناد الأكبر) وهو الله ، ومن ثم لا يكون للعالم الخارجي أو المادة في كل صورها وجود بذاتها .

هذا هو مجمل مذهب " ليبنتر " الروحي القائم على رد الوجود إلى الروح إلا أن المذهب الروحي بصفة عامة وبصورته القديمة لا يمكن أن يفسر طبيعة الوجود بالروح وحدها كما أن المذهب المادي عاجز عن تفسير هذا الوجود بالمادة وحدها.

" وإذا قارنا الفكرة الرئيسية في المذهب الروحي بنظيرتها في المذهب المادي ، وجدنا الأولى أبسط بكثير من الثانية فالمذهب الروحي يرد جميع الظواهر التي ندركها في تجاربنا – أي الظواهر المادية والجسمية على الأخص – إلى ظواهر عقلية ، بمعنى أن يعتبر

---

(١) انظر : أسس الفلسفة د . توفيق الطويل ، صـ ٢٤٧ .

مصدرها وجودا عقليا أو حياة عقلية ، أما نوع ذلك الوجود العقلي أو هذه الحياة العقلية ، فلا نعرفه إلا بالقياس إلى حياتنا العقلية ، فنتصوره على أنه مظهر لحياة عقلية روحية شخصية تختلف قليلاً أو كثيراً في كمالها الروحي وتتفاوت بحسب ما فيها من الصفتين الظاهرتين في جميع الكائنات الطبيعية ، وهما التلقائية " و " الاستقلال في الفعل " [1].

صور المذهب الروحي

يذكر بعض الباحثين أن لهذا المذهب صوراً مختلفة أهمها :-

أ- الروحية الواحدية :

وهي ترد العالم إلى نظام عقلي فريد أو ترده إلى عقل واحد وهذا الاتجاه أبرز من يمثله " فشته " و " هيجل ".

ب – الروحية المتكثرة :

وهي التي ترد العالم إلى كثرة من الأفكار وأبرز من يمثلها " ليبنتر " و " باركلي " .

فالأول : يرى أن للمادة وجوداً ما ولذا سلم بوجود الأشياء الخارجية .

أما الثاني : فقد رأى أن المادة لا وجود لها في الخارج ، وإنما يخيل إلينا أنها موجودة ، فلا وجود إلا للروح والعقل ، ولا فرق بين ما نسميه شيئاً حقيقياً وبين ما ندعي وجوده في الخارج [2].

والحقيقة أن مشكلة الوجود لا يمكن حلها عن طريق المادة فقط أو الروح وحدها بل لابد من حلها من خلالهما معاً أعني الروح والمادة وهذا ما فعله أتباع المذهب الثنائي .

---

(١) المدخل إلى الفلسفة . كولبه صـ ١٨٣ .

(٢) انظر : أسس الفلسفة ، صـ ٢٤٧ ــ ٢٥٠ .

ثالثاً : المذهب الثنائي :

يعد هذا المذهب اتجاهاً ثالثاً يوفق بين موقف الفلاسفة الماديين من جانب وموقف الفلاسفة الروحيين من جانب آخر ، وهو في الوقت ذاته الاتجاه الأكثر شيوعا في الفلسفة بصفة عامة .

ويذهب دعاة هذا الاتجاه إلى أن أصل الوجود في حقيقته يرجع إلى أصلين مختلفين تمام الاختلاف هما الروح والمادة .

" فالاثنينيون هم الذين يقولون بوجود عنصرين مادي وروحي " [١] وقد نشأ هذا المذهب مبكراً في تاريخ الفكر الفلسفي ، ويعتبر " إنكساغوراس " – من الفلاسفة القدماء – هو المؤسس لمذهب الثنائي ، فقد وضع حدا فاصلا بين العقل والمادة التي تتألف من ذرات لا نهاية لعددها ، فالعقل عنده هو مبدأ النظام أو التدبير ، والحركة في المدة التي لا نظام فيها ، ولا حركة بطبيعتها ووجود الكائنات يتم عن طريق الحركة وليست هذه الحركة ذاتية في المادة وإنما هي بفعل فاعل خارج عن المادة هو العقل ، ويصفه " انكساغوراس " بأنه ألطف الأشياء وأصفاها ، بسيط مفارق للطبائع كلها ، عليم بكل شيء قدير على كل شيء متحرك بذاته ، فهذا العقل هو العلة المحركة والمنظمة للموجودات .[٢]

ومما لاشك فيه أن قول " انكساغوراس " بعقل خارج عن المادة له أهميته في تاريخ الفلسفة فقد كان أول من فصل بين العقل والمادة ووجه أنظار الفلاسفة بعده إلى الثنائية .

---

(١) مبادئ الفلسفة . ا . س . رايبوت . ترجمة أحمد أمين ، صـ ١٩١ . مكتبة النهضة المصرية ، ط ٨ / ١٩٩٧.

(٢) انظر : المدخل إلى الفلسفة . كوليه صـ ١٨٨ ، أضواء على الفلسفة اليونانية . د . صلاح عبد العليم صـ ٨١ – ٨٢ . دار الطباعة المحمدية .

فقد وجدت هذه الثنائية عند أفلاطون الذي سلم بوجود عالم الحسن وعالم المثل ويري أن عالم المثال نموذج يحتذي به عالم الحس [١].

كما بدت الثنائية قديما عند " أرسطو " في قوله : فالهيولى والصورة اللتين يتكون منهما معا كل موجود ، فالهيولى هي العنصر المادي أو العلة المادية المقابلة للصورة ، والصورة هي العنصر غير المادي ، والعلاقة بينهما هي العلاقة بين ما هو ممكن الوجود وما هو متحقق الوجود ، أو بين ما هو موجود بالقوة والموجود بالفعل [٢]

ثم ظهرت هذه الثنائية في القرون الوسطى وذلك من خلال البحوث الفلسفية والأخلاقية فقد ظلت الإثنينية ذات السلطان في القرون الوسطي لاتفاقها مع تعليم الدين [٣].

ثم ظهرت الثنائية في الفلسفة الحديثة عند " ديكارت " الذي يعتبر المؤسس الحقيقي للمذهب الثنائي فقد رأى أن الكون يتكون من عنصرين أحدهما مادي ، والأخر عقلي هما المادة والعقل فقد انحصر فيهما .

والشيء المادي عنده هو ما كان فيه صفة الامتداد ، والعقلي ما كان فيه صفة التفكير ، وهذان العنصران – المادة والعقل – مختلفان أشد ما يكون الاختلاف ، فيستحيل أن تتصف الأجسام بصفة التفكير ، كما يستحيل أن يتصف العقل بصفة الامتداد ، وهكذا شطر " ديكارت " الوجود إلى شطرين لا تجد الوحدة إليها من سبيل ، فهو إثنينى متطرف .[٤]

---

(١) انظر : مبادئ الفلسفة صـ ١٩٢ .
(٢) نفس المصدر صـ ١٩٢ .
(٣) انظر : قصة الفلسفة الحديثة د.زكي نجيب وزميله صـ٧٢-٧٣. مكتبة النهضة المصرية .
(٤) انظر : المصدر السابق . صـ ٧٢ ، ٧٣ .

ورغم أن كلاً من هذين النوعين مستقل في وجوده عن الأخر إلا أن الصلة بينهما مشتركة ولا يستطيع " ديكارت " أن ينكر ما نشاهده من عقل الإنسان وجسمه ارتباطا يجعل منهما وحدة متماسكة متصلة ، فكيف يمكن التوفيق بين مذهبة وبين ما نشاهده ؟!

في الواقع أن " ديكارت " لم يستطع أن يفسر لنا كيف يمكن الاتصال بين هذين الجوهريين المختلفين اختلافا تاماً إلا أنه استطاع أن يتغلب على هذه الثنائية في نهاية الأمر بفضل مفهومه للخلق ، يقول " ديكارت " إن العلاقة التي نراها في الإنسان بين العقل والجسم لا يمكن أن تعلل بشيء من طبيعتهما لأنهما ضدان متناقضان ، فلم يبق إلا أن يكون اتحادهما هذا حقيقة خارقة أرادها الله على الرغم من أنها لا تتفق مع طبائع الأشياء ، فالله قد خلق العقل وخلق المادة ووفق بينهما ، ومن أجل ذلك فهو مصدر كل الحقيقة الواقعة [1] .

لذلك يرجع الفضل لـ " ديكارت " في أنه لفت أنظار الفلاسفة إلى محاولة التغلب على هذه الثنائية بإيجاد علاقة بين شيئين مختلفين تمام الاختلاف مما أدي إلى التسليم بالعلة الحقيقية التي هي الله . التي أوجدت الأشياء وجمعت بينها على الرغم ما يوجد بينها من تناقض أو تعارض .

رابعاً : مذهب الكثرة أو التعدد :

من بين المذاهب التي تعرضت لدراسة الوجود مذهب الكثرة والتعدد فقد نظر بعض الفلاسفة إلى الكون فرأوا أن العالم لا يتكون من عنصر واحد فقط كما يقول أصحاب المذاهب الواحديه .

---

(١) انظر : نفس المصدر ص ٨١- ٨٢ .

كما أنه ليس مؤلفاً من عنصرين كما يرى أصحاب المذهب الثنائي فقد رأى أنصار هذا المذهب " أن كل ما في الوجود ينطق بالتعدد والكثرة وأن افتراض مبدأ واحد يرد هذه الكثرة إلى الوحدة لا يعدو أن يكون افتراضاً ليس هناك ما يبرر تمسكنا به في الواقع التجريبي ولذلك فضلوا أن يقفوا عند مظاهر التعدد في الكون دون أن يخضعوها إلى سلطه مبدأ واحد بعينه ، ولذلك يقول " وليم جيمس " (١٨٤٢-١٩٢٠) العالم المتكثر أشبه ما يكون بالجمهورية الفدرالية ، وهو بذلك ليس إمبراطورية أو ملكية مطلقة" [١]

وهذا المذهب له جذور قديمة فنلمح بدايته الأولى عند " أنباذقليس" (٤٨٣-٤٢٣، ق. م) الذي يرد أشياء العالم كلها إلى أصول أربعه هي : الماء ، والهواء ، والنار ، والتراب ، ويضيف إليها مبدأين – هما : المحبة ، والغلبة (أو التنازع ، أو الكراهية) ليفسر بهما الأشياء ، وكيفية وجودها في العالم وهذه العناصر الأربعة في نظره بسيطة ولا يمكن تحليلها إلى ما هو ابسط منها أو رد أحدهما إلى الأخر ولكي أوضح صورة لمذهب الكثرة ظهرت عند أصحاب المذهب الذري الذي يري أنصاره أن العالم المحسوس ينشأ نتيجة اجتماع مجموعة من الذرات تختلف من ناحية الكم لا من ناحية الكيف ؛ لأنها ذرات مادية [٢].

وقد ظهر هذا المذهب في القرن التاسع عشر بصورة جديدة على يد " أوجست كونت " رائد المذهب الوضعي فقد رفض مذهب الوحدة بزعم أنه قائم على مبدأ الاقتصاد والتبسيط في الطبيعة ، وفي رأيه أن هذا مبدأ لاهوتي صرف لا يستطيع الصمود أمام المناقشة فتفسير الوجود عن طريق المبدأ الواحد في نظره خطأ فالكون على

---

(١) مقدمة في الفلسفة العامة . د. يحي هويدى صـ ٩٧ .

(٢) انظر : المدخل إلى الفلسفة د. إمام عبد الفتاح صـ٣٤٤- ٣٤٥ مقدمة في الفلسفة العامة د. يحي هويدى صـ ٩٧-٩٨ .

درجة عالية من التعقيد ، كما أن الوسائل المتاحة للإنسان محدودة . فتفسير الوجود لا يمكن إلا عن طريق الكثرة .

وعلى ما يبدو أن نظرته هذه جاءت طبقاً لمذهبة الذي آمن به ودافع عنه ودعا إليه . فقد رفض فكرة الإله وأنكر ما وراء الطبيعة تحت زعم عدم خضوعه للمشاهدة . فالأفكار والعلل والغايات لا وجود لها .

وفي القرن العشرين حمل " وليم جيمس " مذهب الكثرة ورأى أن نقطة البدء في فلسفته هي الاحساسات المعبرة عن الواقع ولما كانت الاحساسات متكثرة ، كان يعني ذلك عدم وجود حقيقة واحدة مطلقة . فالحقيقة لا تصبح حقيقة إلا من خلال الاحتكاك بالوقائع المتكثره [1].

وبعد ...

فقد كانت هذه صورة موجزة عن المذاهب الفلسفية وتفسيرها للوجود وبانتهاء الحديث عنه نكون قد انتهينا من عرضنا لأحد مباحث الفلسفة المشهورة . أملين أن نكون قد وفقنا في هذا العرض ، وننتقل الآن لعرض مبحث أخر من مباحثها وهو مبحث المعرفة ، سائلين الله تعالى التوفيق والهداية والإرشاد .

---

(١) انظر : مقدمة في الفلسفة العامة د. يحي هويدى صـ ٩٩-١٠١.

فهرس الموضوعات